

الطبعة ٢

شهادة

أحمد حجي

مذكرات جندي مصري

في جبهة قناة السويس

مختارات الكرمة

مذكرات جندي مصري

في جبهة قناة السويس

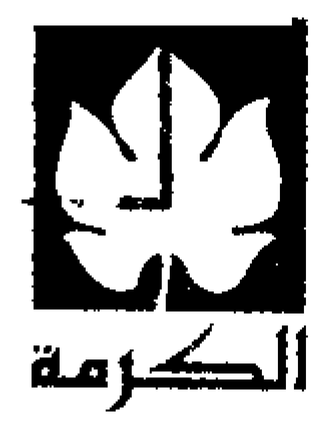
أحمد حجي

مذكرات جندي مصري

في جبهة قناة السويس

رسوم

محمد حجي





لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © أحمد حجي ١٩٧٢

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

حجي، أحمد.

مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس / أحمد حجي – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776467071

١ – حجي، أحمد - المذكرات.

أ – العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٧٤٣ / ٢٠١٤

٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣

رسوم الغلاف والداخل: محمد حجي

إهداء

إلى أهلي..

إلى أصدقائي..

إلى كل من أُحبهم..

أهدي هذه المذكرات.



منذ أن وصلت إلى جبهة القتال في الخط الأمامي، تلح عليَّ ذاكرتي أن أسجل ما يحدث وما يجري في مواجهتنا للعدو الصهيوني. وأقول حقيقة بأن الذي أكتبه وما يجري به قلمي ليس إلا النزر اليسير.

وإذا لم توافني منيتي أو يدركني الموت، فسوف أقص على شعبنا مأساة مقاومته للعدو، وبطولات جنوده وبسالتهم.. أما إذا كانت نهايتي ستكون على أرض القناة، فسأموت مستريحًا لأن أفكاري وجدت طريقها ولم تعجز عن الحركة.. وبذلك تكون هذه المذكرات هي حديث الرصاص الذي يجب أن تتكلم به قضية شعبنا.

أحمد حجي

٥ أبريل ١٩٦٩

الأربعاء ٢ أبريل ١٩٦٩

عندما امتدت أشعة الصباح من خلال النافذة، صحوت أنا وزميلي الراقد بجواري في الحجرة، واتجهنا إلى مكتب السرية. كان جميع الجنود يرتدون ملابسهم الشتوية ويقفون في صف واحد وأمامهم مهماتهم.. علمت أن ذلك هو يوم الرحيل، في هذا اليوم سنفترق جميعًا، وعلى الإنسان أن يمتلك مشاعره. لقد عشنا سويًّا شهورًا عديدة في هذا المعسكر وأصبحنا إخوة.. سهرنا معًا، تحدثنا عن مصر وعن العدوان وعن بلادنا كلها، ظللت واقفًا في شرود منتظرًا أن أسمع اسمي وأن أعرف مكاني الجديد. كنت قد اخترت التوجه إلى المنطقة الشرقية، ولما أفصحت يومها عن رغبتي، نظر إليَّ الجندي الذي يسجل الرغبات في إشفاق وقال لي:

ـ إنت غاوي قرف.

نظرت إليه نظرة حادة، فخط قلمه بسرعة أمام اسمي «المنطقة الشرقية»؛ لذلك لم تكن مفاجأة لي أن أعرف هذا المكان، لكنني كنت أعيش لحظات الفراق القاسية وأنا أحتضن زملائي الذين سيذهبون

إلى السويس وبورسعيد والإسكندرية في لحظات مرة، وانهمرت الدموع وارتعشت الأكف بالسلام واهتزت الكلمات وتحجرت. كان عليَّ أن أعيش هذه اللحظات، وكنت أعزي نفسي بأن أحصل على عناوين زملائي، كلٍّ في موقعه الجديد.

لحظة صمت وتوقع وصل على إثرها مندوب الإسماعيلية.

قرأ اسمي بين الذاهبين إلى منطقة الإسماعيلية (إلى الجبهة)، كنت سعيدًا سعادة لم أشعر بها من قبل برغم الرعشة التي انتابت جسدي، وفي الوقت نفسه دار في ذاكرتي شريط طويل مر في ثوان.. أمي وهي تعيش هموم أسرتنا.. إخوتي الصغار.. والدي والصعاب التي يعاني منها.. صورة أخيرة جاءت إلى ذاكرتي: صورة لقائي مع أخي الأكبر ليلة سهرنا حتى الصباح نتحدث حول مشاكل الأسرة والقرية وفلاحيها وعن الوطن وجرحه الدامي في سيناء، حقيقة كنت سعيدًا أن يتحول كفاحي في قريتنا إلى نضال على الجبهة، كان لا بد أن أقول لأخي أن يحتل موقعه من جديد في كفاح الأسرة والقرية.

تركت له ورقة حملتها مشاعري ورغبتي - بل وراحتي - في الذهاب إلى الجبهة.. قلت له: «كم سيشرفني أن أكون جنديًّا يشارك في معركة الوطن، وكم سأكون قريبًا إلى نفسي وأنا أرقب سيناء منتظرًا مع المنتظرين يوم تحريرها».

الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر.. الحر شديد.. سكان القاهرة كالنمل يروحون هنا وهناك في حركة دائبة، خيل إليَّ أنهم يعيشون بعيدًا عن الحرب.

تحرك بنا القطار الحربي.. التقت عيوننا وفي أعماقنا أشياء غريبة،

فلم يكن يشغل بالنا إلا طلقات المدافع وأزيز الطائرات والقتال الدائر في جبهة القناة.. خليط من الضجيج والزئير يختلط بصور الأهل والأصدقاء.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى الإسماعيلية، وكانت زيارة غير عادية، مناظر تؤلم النفس وتوقدها بالثورة. على الرصيف الشمالي جلس بعض النسوة وأمامهن بعض المتاع.. يبدو أنهن سيهاجرن إلى المناطق البعيدة.. المدينة مزدحمة بالجنود.. طلقات العدو هدمت الجامع وخرقت حائطًا في مبنى كبير، نوافذ البيوت مغلقة ولا يبدو ظاهرًا للعين إلا رجال الجيش. قال لنا مرافقنا:

ـ المدينة مغلقة لأن العدو يركز مدفعيته عليها باستمرار، وأنتم رجالنا الجدد، فمزيدًا من الهمة.

كان قرص الشمس الأحمر الدامي ينحدر في طريقه إلى الغروب، وكان على كل جندي منا أن يحمل أمتعته ويلقي بها في أي عربة من عربات الجيش المتجهة إلى مدينة القنطرة غرب.. ركبنا في إحداها ونزلنا منها إلى ثانية فثالثة مرقت بنا في سرعة جنونية.

قال البعض:

ـ ربما كانت القناة موازية لهذا الطريق.

قال مرافقنا:

ـ لا تبعد المسافة عنها أكثر من أربعة كيلومترات، ويمكنكم في الصباح رؤية مواقع العدو.

توقف الحديث فجأة.. قال زميل من زملائنا الجدد:

ـ اسمعوا.. صوت مدافع تدوي على البعد.

صمت الجميع في خوف.. اهتزت مشاعرنا.. ارتعش البعض.. أعلن واحد من أهل المنطقة أن القصف الذي نسمعه ما هو إلا أصوات مدافعنا التي يتدرب جنودنا على إطلاقها في الليل.

تركنا العربة ووقفنا في انتظار وصول عربة أخرى متجهة إلى حيث نحن ذاهبون.. كان سواد الليل يغطي المنطقة كلها بلا شعاع واحد.. سمعنا صوت محرك من بعيد فأدركنا أنها عربة من عربات الجيش، وقفنا في انتظارها.. كانت إحدى حاملات الجنود، فألقينا بأمتعتنا داخل صندوقها ثم ألقينا بأنفسنا من ورائها، وفي منتصف الليل تمامًا وصلت بنا إلى مواقعنا.

افترشنا الأرض.. التف كل منا في غطائه وراح يغط في النعاس، وفي صباح اليوم التالي مرت مشاعرنا بامتحان قاس؛ فالسبعة عشر جنديًّا الذين قضيت معهم الليل في هذا الموقع سوف يتفرقون مرة أخرى قبل شروق الشمس، سالت الدموع من جديد واحتضن بعضنا بعضًا.. كنا نشد على أيدينا بقوة، وكانت كلماتنا تنطلق قائلة في إعزاز:

ـ يجب أن نكون رجالًا.



السبت ٥ أبريل ١٩٦٩

يبدو أني قد تمرست على هذا الجو؛ فقد صحوت وأنا أحس براحة تامة، وفي نفس الوقت كانت لي رغبة في التجول بالمنطقة.. لكن المندوب الذي وصل صباح اليوم أمرنا بحزم مهماتنا للذهاب إلى المكان الذي سيكون لي شرف العمل فيه. ألقيت مهماتي داخل صندوق عربة «زل» روسية الصُّنع، وقفزت لأرقد بجوارها. انطلقت العربة، أخذت أطل برأسي إلى الخلف لحقول البرسيم والقمح والفول الأخضر.. أراض واسعة مزروعة بشتلات البطيخ والشمام.. رجال قليلون يعملون بالحقول.. قوات الجيش ترابط في كل مكان.. انحنت العربة مع انحناءة الطريق لتدخل إحدى القرى... وقد لا أكون دقيقًا في هذا التعبير، فليس هناك سوى بيوت مهجورة وشوارع خالية وخرائب هدمتها طلقات المدفعية ودمرتها صواريخ الطائرات... القرية كلها أنقاض تمرح فيها الكلاب التي رفضت الرحيل مثلما رحل الناس وهم يحملون أمتعتهم ويسحبون دوابهم، حتى النوافذ والأبواب نقلوها إلى حيثما ذهبوا.. مفارقة عجيبة.. حائط ما زال قائمًا

في القرية وقد خطت عليه يد صغيرة، يبدو أنها لطفل في المدرسة الابتدائية: «النصر لنا».

مرقت العربة مسرعة لتدخل قرية أخرى إصابات العدو بها خفيفة.. في القرية يلتقي رجال الجيش بالفلاحين.. كانت تلك الصورة تريحني كثيرًا، وكنت أتمنى أن يكون التحام الجيش بالفلاحين هكذا على طول الجبهة.

عربات الجيش لا تهدأ، والوجوه السمراء لجنودنا ـ برغم كل شيء ـ تطفح بالأمل... فلاح يحاول أن يرفع ما دمره العدو من بيته... فلاح آخر يشق الترعة بفأسه بالرغم من أن العربات العسكرية التي لا تكف عن الحركة سوف تهدمها وتغطيها بالتراب مرة ثانية، لكنه برغم ذلك لم يرد أن يترك القرية، زرع بجانب القوات المرابطة لحماية المنطقة.. لقد كانت هذه الصور هي الدوافع القوية لي أن أعود نفسي وأعدها لتحمل رؤية الجراح الدامية والمآسي المفجعة دون أن أسقط أو يصيبني اليأس.



الاثنين ٧ أبريل ١٩٦٩

أطراف بحيرة المنزلة تمتد إلى الجبهة كأصابع اليد هنا وهناك، إنها صامتة تمامًا. أكوام الملح الأبيض الناصع تمتد بطولها. الإوز الذي يرفرف في الأفق ويلامس مياهها الساكنة أحيانًا، أما الحشائش فإنها تنمو في كل مكان.. يبدو أن الفلاحين تركوا أراضيهم المحيطة بالبحيرة منذ شهور بلا زرع أو حتى حصاد للمحصول القديم، كما هو الحال في كثير من المواقع على طول الجبهة.. قوات الجيش ترابط في أماكن متفرقة في الخنادق والملاجئ في مواجهة العدو.. وسط هذا البوار وتلك الحشائش توجد قطعة أرض لا تزيد عن مترين ونصف المتر زرعها الأخضر يثب عاليًا في مواجهة الرصاص.. جاموسة وحمار يرقدان في اطمئنان عند رأس قطعة الأرض هذه، وعم بيومي الفلاح العجوز يحمل عصاه ويتجول متفقدًا زراعته، وقد يبتعد قليلًا حتى لا يسقط في إحدى الحفر التي أحدثتها قذائف العدو، أو يتقدم في اهتمام ليدقق النظر في شيء ما. عندما رحلت القرية الصغيرة في منتصف الليل بعد أن

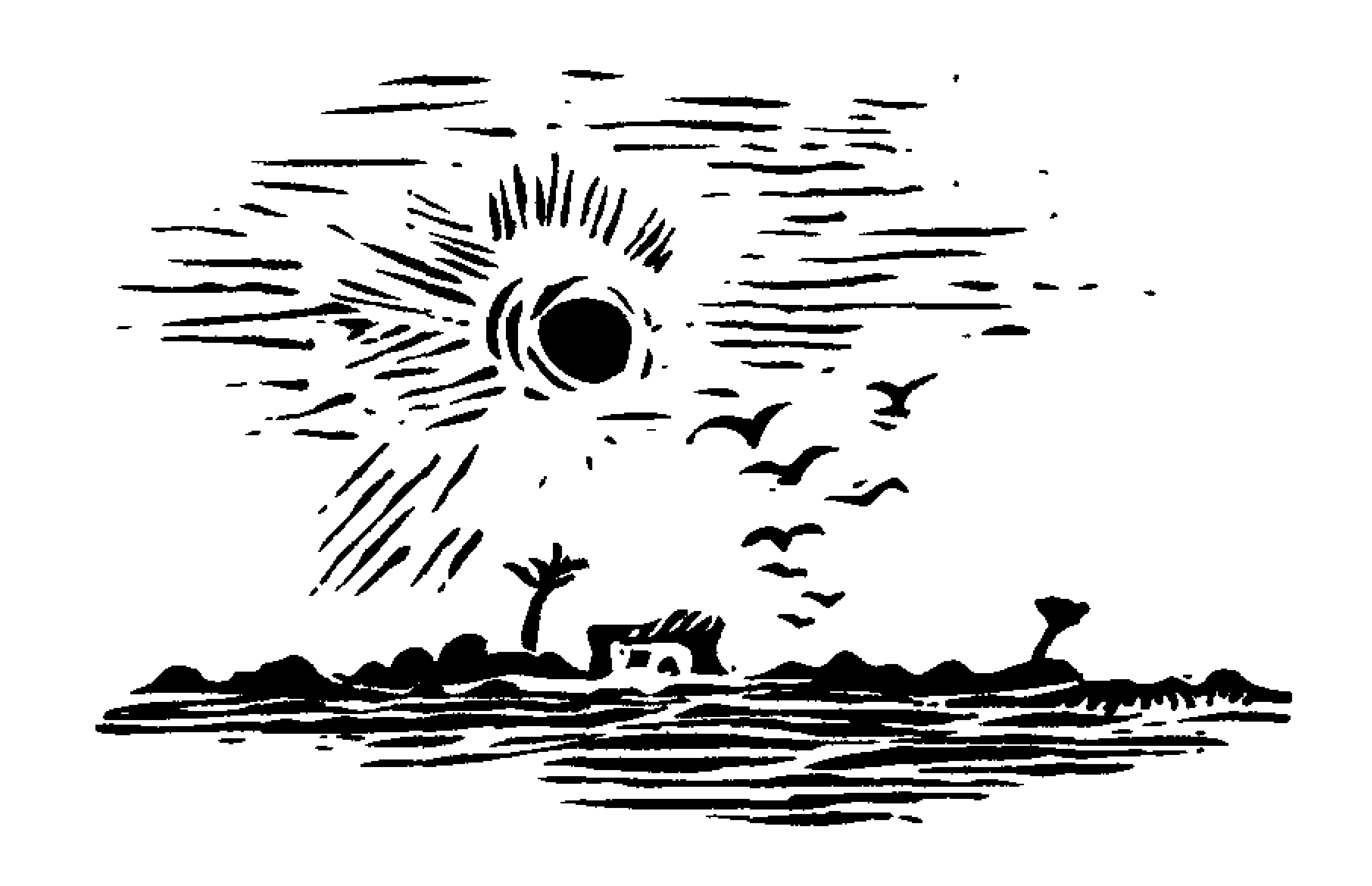
التهبت الاشتباكات بالمدفعية بيننا وبين العدو وتمكنت قذائفه من الوصول إلى القرية، رفض عم بيومي الرحيل معهم وقرر البقاء والاستمرار في زراعة أرضه.

وعندما تبدأ الاشتباكات من جديد وتنطلق القذائف ويحيط غبار الانفجارات بداره، فإن ذلك لا يخيفه أبدًا، وقد تمكن هو وزوجته وأولاده من أن يحفروا تحت الأرض بجوار البيت ملجأ يلجأون إليه في حالات الخطر، وفي أحيان أخرى يشمر عم بيومي وأولاده ملابسهم ويحملون القذائف وصناديق الذخيرة ليساعدوا الجنود في أثناء القتال، وعندما تنتهي الاشتباكات يحمل عم بيومي عصاه في يد وفي اليد الأخرى يحمل مقطفًا به بعض الزجاجات المملوءة باللبن، ويذهب إلى الجنود خلف المدافع ويقدمها لهم.

وتعود الحياة بسيطة هادئة في بيت عم بيومي.

وعند المساء.. يتجه قرص الشمس وقد ازداد احمرارًا لينغرس من جديد في مياه بحيرة المنزلة، فيحولها إلى لون الدم.

وقد تعود الاشتباكات من جديد، ويعود عم بيومي إلى بيته، ولكنه لا يتوقف عن الإلحاح في طلب سلاح شخصي له.



السبت ١٢ أبريل ١٩٦٩

ارتديت معطفي الصوفي وأحكمت إغلاق جميع أزراره لأحمي نفسي من البرودة القادمة من قناة السويس والبحيرات المرة وأطراف بحيرة المنزلة. قادتني قدماي في شغف نحو القناة... فقد كنت أقرأ لكاتبة سوفييتية كتابًا عن تاريخ القناة والآلاف الذين ماتوا من الفلاحين في شقها، والتاريخ الطويل لمقاومة الاحتلال الذي كان يطمع في الاستيلاء عليها. وكل القرى على طول القناة تحمل بصمات تاريخ القناة.. وتاريخ العمل الفدائي ومقاومة الاحتلال الإنجليزي. أسراب العصافير وأبو قردان ترفرف بين الحشائش.

وفجأة دوت المدافع، فتطايرت أفكاري وتحطمت خيالاتي، اضطربت العصافير وتفرقت أسراب أبو قردان، وعوت الكلاب وأخذ الفلاحون يفرون إلى بيوتهم في ذعر.. الدخان يتصاعد على الضفة الشرقية للقناة.. جريت لأقرب خندق وألقيت بنفسي داخله، فككت الزرار العلوي وقلت لنفسي ما أصدق قول الكاتبة الروسية

في كتابها: «إن القناة هي قلب مصر وهي مأساتها...». نظرت ثانية للدخان.. طلقات جديدة تنفجر.. صبي من أولاد الفلاحين يهبط إلى جواري ويقول لي في فرح:

ـ النار والعة عند العدو.

قلت:

ـ أنت متأكد؟

قال:

ـ نعم نعم.. مدافعنا تضرب.

قلت للصبي:

ـ هل تخاف النيران؟

قال بشجاعة:

ـ أي نيران؟ الإسرائيليون ناس جبناء.

مرت فترة من الصمت قطعتها الطلقات المتواصلة التي تنفجر في مواقع العدو.. الراديو يعلن عن اشتباك في منطقة القنطرة.. الجالسون بالخندق يتكومون حول الجهاز الصغير وهم يرهفون السمع.. قال المذيع:

ـ و... و... وكانت خسائر العدو فادحة، أما قواتنا فلم تخسر شيئًا.

انطلق الصفير والتصفيق وقفز كل من في الخندق إلى الطريق، وعادت الماشية إلى مراعيها وعادت العصافير وأبو قردان تمرح في أرض الوطن، وعلى الجانب الآخر الذي يحتله العدو كان الدخان ما زال يتصاعد.

اتجهت ماشيًا على قدمي إلى بحيرة المنزلة، مترامية الأطراف،

حيث كانت الشمس في طريقها إلى الغروب.. قرص الشمس الأحمر يعكس على المياه صورة رائعة ومؤلمة أيضًا، من بعيد يلتحم الأفق مع مياه البحيرة ويظهر على البعد قارب صغير لعله قارب صيد، تهب رياح قوية، أقول لنفسي: في وقت الحرب وبرغم الرصاص المنهمر، الفلاح يزرع الأرض والصياد يبحث عن الرزق في البحيرة.. فكيف لا يقاتل الجندي ببسالة وثبات؟

عدت وفي ذهني أشياء عديدة عن كفاح الإنسان في بلادنا.. وعن المحنة وقسوتها.. والأرض التي يحتلها العدو.



الأحد ١٣ أبريل ١٩٦٩

على غير عادتي صحوت هذا الصباح مبكرًا للغاية.. الساعة الرابعة.. وظللت راقدًا في فراشي لأحتمي من البرد، لكني بعد قليل سمعت أصواتًا وحركة.

سألت جنديًّا من زملائي:

ـ هل نتوقع اشتباكًا في وقت مبكر كهذا؟

قال:

ـ أبدًا.. لكنها دفعة جديدة من زملائنا ذاهبون لقضاء إجازتهم الميدانية.

قلت:

ـ إجازات والعدو يترصد لنا؟!

قال:

ـ وما وجه الغرابة؟ ناس تحارب وناس تستريح، وهكذا.

وبعد قليل تجمع عدد من الجنود.. كل يرتدي ملابسه النظيفة وقد وضع أعلى ذراعه اليمنى العلامة الحمراء التي تدل أنه من

رجال ميدان القتال، الجنود يحمِّلون زملاءهم أصحاب الإجازات خطاباتهم وتوصياتهم للأهل والأصدقاء ويكررون ذلك مرات ومرات.

وصلت العربة الكبيرة وتكدسوا فوقها. كانوا سعداء، فسوف يلتقون بالأهل والأصدقاء ويقضون أيامًا في المناطق الآمنة.

تحركت العربة وتحركت الأيدي تودع الزملاء، وتسمرت العيون على العربة وهي تتلوى مع انحناءات الطريق الزراعي حتى اختفت تمامًا. وعاد الجنود وفي عيونهم دموع متحجرة ينتظرون دورهم في إجازة يقضونها بعيدًا عن القنابل والقذائف والحياة العسكرية القاسية، حيث يقتربون لبضعة أيام من الحياة الهادئة في القرى البعيدة، حيث يروون للأهل والأصدقاء قصص البطولة والألم عن قلب مصر الذي يخفق على طول جبهة قناة السويس.



الثلاثاء ١٥ أبريل ١٩٦٩

كان عليَّ أن أسير على قدمي عشرة كيلومترات حتى أصل إلى القرية التي تحتلها كتيبتنا، فقد كان القناصة الإسرائيليون يقطعون الطريق علينا بالرشاشات والأسلحة الخفيفة، لذلك لم أضق ذرعًا وأنا أجتاز الطريق من أوله وسط البيوت المهدمة في مدينة القنطرة مارًّا بالأراضي الزراعية المحترقة. كانت الأفكار تتسابق إلى ذهني وتمر بسرعة كالطلقات المتقطعة، وبين الحين والحين كان يمرق بجانبي أحد الكلاب مذعورًا.. تذكرت ما حكاه لي أحد الجنود عن زميلنا السائق الذي كان يقود عربته في سرعة جنونية ليملأ خزانات المياه، فأطلق عليه القناصة الإسرائيليون رصاصاتهم، فقاد العربة في سرعة أكثر... طلقات الرشاش تصيب العربة وخزان المياه أخذ يتصبب على الطريق.. السائق ينحني بالعربة داخل الأراضي الزراعية... العربة تهبط وتعلو مع منخفضات الطريق.. وعند مبنى القيادة توقفت العربة مرة واحدة بصوت مزعج، خرج على إثره جمع من الجنود يستطلعون الخبر، فرأوا السائق وقد ضرب باب العربة بقدمه وسقط مغشيًّا عليه. أسرع أحدهم إليه وصب على وجهه الماء البارد، فاستيقظ ونهض واقفًا وأخذ يقص

علينا كيف حاصره القناصة الإسرائيليون على الطريق... وكيف تمكن من الفرار منهم برغم الطلقات التي كانت تخترق باب العربة، وبرغم تحطم زجاجها. كان السائق يحس ببعض الألم في قدمه، التف الجنود من حوله وكانوا يظنون أن هناك رصاصة قد أصابته.. تحسسوا ساقه فلم يجدوا شيئًا، ولكن أحدهم صاح فجأة وهو يشير إلى قدم السائق:

ـ عجيبة.. انظروا!

تحولت أنظار الجميع تبحلق في قدم ذلك الجندي لتلمح إحدى رصاصات العدو وقد تسمَّرت في نعل الحذاء العسكري الثقيل دون أن يصاب قدمه بأي أذى.

كنت قد قطعت نصف الطريق وأنا أعيد على نفسي قصة هذا الجندي وأتلذذ ببطولته، لكني سمعت تكتكة موتور إحدى العربات فالتفت مسرعًا.. كانت عربة جيب عسكرية.. قلت في نفسي عربات الجيب العسكرية لا يركبها إلا الضباط، وهم يتأففون من اصطحاب الجنود معهم. لكن قدمي كانتا مرهقتين، ولم تعد لديَّ قصة أخرى أكمل بها الطريق، قلت فلأجرب: وقفت معترضًا العربة حتى اقتربت مني.. توقفَت.. أشار إليَّ الضابطُ بالركوب، قفزت من الباب الخلفي ثم جلست على المقعد الذي كان التراب يخفي لونه تمامًا. كان الضابط الذي يقود العربة برتبة رائد، فهمت أنه قائد إحدى كتائب المدفعية، وفي الكرسي الخلفي كان يجلس ضابطان برتبة نقيب. مرقت العربة تخترق أراضي القمح وتدوسه.. أشار القائد بأن ذلك المكان يصلح لكي تحتله الكتيبة الجديدة موقعًا لها. أومأ أحدهما برأسه موافقًا ثم ضحك ضحكات متوالية.. وقال للنقيب:

- هل نسيت إحضار الثلاجة مع المهمات الأخرى؟
رد النقيب:
- نسيتها فعلًا.
قال الرائد في غضب:
- أنا لا أستطيع أن أعمل والبيرة بعيدة عني.
ثم التفت إلى النقيب من جديد قائلًا:
- نسينا أنفسنا تمامًا.. تصور لم نحضر معنا بعض السندوتشات.
قال النقيب مسرعًا:
- يا فندم غدًا نجهز ساندوتشات.
قال الرائد:
- ضروري.

وكادت عجلة القيادة تفلت من بين يديه.. فقد سقطت العربة في حفرة مسطحة لكنها قفزت بعد أن ارتطمت رؤوسنا بالسقف. كنا قد اقتربنا من موقعنا. طلبت النزول من العربة. نزلت إلى الطريق. نظرت خلفي للعربة لأرى ما قد حدث، لكني كنت سأسقط في إحدى الحفر العميقة التي حفرتها إحدى صواريخ العدو.



الأربعاء ١٦ أبريل ١٩٦٩

منذ الصباح الباكر.. وهذا الجندي لا يبتعد عني، فالألم يعتصره ويعتصرني أيضًا من أجله، فقد احتبس عنده البول منذ يومين.. ماذا سنفعل له؟ الإسعافات التي تحت يدي لا يمكن أن تؤدي له شيئًا، طلبت إحدى العربات، وفي الصندوق ألقيت بجسدي إلى جواره وأسندت رأسي على ظهر مقصورة السائق.. انطلقت العربة تخترق الأراضي المزروعة والتي تهدم ما كان يقابلها من بيوت طينية مهجورة. كان لا بد من الإسراع لإسعاف هذا الجندي، وكان السائق يعرف هذا جيدًا.. العربة تتلوى بين حقول القمح، والجندي هو الآخر يتلوى من الألم المبرح الذي يزداد شدة كلما أوغلنا في الطريق. كنت أشيح البصر بعيدًا عنه فيقع على الحقول الصفراء والأراضي البور فأحس بانقباضة شديدة، لقد كانت الكارثة قاسية على هذا الشعب فهي تلتهم قوته بنفس القسوة التي تلتهم بها أبناءه.

أفقت على صوت جندي الاستقبال بالسرية الطبية وهو يوقظ

الجندي المريض للنزول من العربة. قرر الطبيب احتجاز المريض لسوء حالته.

عادت بنا العربة مسرعة، وفي الطريق استوقفنا أحد جنود الشرطة العسكرية قائلًا:

ـ يحتمل أن يحدث اشتباك بيننا وبين قوات العدو بعد لحظات، أرجو أن تلزموا الخنادق فور سماعكم الطلقات.

قلنا في صوت واحد:

ـ فلنسرع بالعربة إلى مواقعنا.

وعلى الطريق الموازي لقناة السويس انطلقت العربة في سرعة جنونية، وفي كل دقيقة كنا نتوقع إحدى ضربات العدو على عربتنا. كان قلق الصمت يخيم علينا أنا والسائق، لكننا أفقنا بعد وصولنا إلى موقع كتيبتنا سالمين.. وانطلقنا نضحك، ورحت أعلن لبقية الجنود عن زميلهم الذي احتجز بالسرية الطبية.

اقترب منا أحد الضباط قائلًا:

ـ كونوا على استعداد.

وما إن انتهى من كلماته حتى انطلقت الصواريخ من سيناء إلى مواقعنا.. احتضنت حقيبة الإسعاف التي أحملها على كتفي.. وداخل الملجأ (قيادة الكتيبة) جلست في انتظار أي أوامر لإسعاف الأفراد المصابين.

كان العدو يركز ضرباته الصاروخية على مواقعنا.. قصفت صواريخه معظم الأشجار التي كنا نحتمي بها، صاروخ اتجه إلى جذع شجرة الملاحظة فحملها من مكانها لتسقط بالجندي الذي

يعتليها في مكان آخر بعيدًا، أسلاك التلفون تقطعت... جاء جندي الملاحظة مذعورًا إلى الملجأ وارتمى بجواري قائلًا:

ـ انقطعت الصلة بين مدافعنا وقيادتها على شاطئ القناة وما زالت الصواريخ تتساقط وتدمر.

عيوننا تزداد احمرارًا... نظرات ذاهلة.. البعض يتلو آيات من القرآن والبعض الآخر يتلو فقرات من الإنجيل كلما اهتز الملجأ من قوة الانفجارات الصاروخية.. أحد الجنود يعد الانفجارات بصوت مسموع:

ـ ٤، ٤٢، ٤٣، ٤٥.

خمسة وأربعون صاروخًا قذفت بهم منطقتنا قبل أن يتوقف القصف.. صعب علينا أن نصدق بأننا ما نزال أحياء وأن كل الضربات ابتعدت عن الملجأ.. انطلق بريق الفرح من عيون الجميع.. عانق بعضنا بعضًا عناقًا حارًّا وكأننا ولدنا من جديد، بينما كان قرص الشمس قد ازداد احمرارًا، واتجه مسرعًا ناحية بحيرة المنزلة لتبتلعه مياهها رويدًا رويدًا، وبدأت الحركة تدب من جديد. انطلقت الطيور عائدة في تشكيلات رائعة.. الأشجار المحطمة تتكوم هنا وهناك.. أحد الكلاب أصيب بشظية.. جاموسة ضخمة ملقاة وهي مثخنة بجراح مميتة.. صاحبها يشق جلبابه ويقرر الرحيل نهائيًّا عن المنطقة.

ركبت العربة مع السائق لننطلق بين الحقول المزروعة إلى القرية التي تعسكر فيها الشؤون الإدارية للكتيبة، كنت قد تعودت على ارتطام العربة بمنخفضات الطريق، القرية تلوح لنا بين الظلمة التي بدأت تزحف على الجبهة كلها، كنت أتعجل وصولنا إلى القرية حتى أستريح من عناء هذا اليوم ومتاعبه.

ألقيت بسلاحي وحقيبة الإسعاف بجواري، ودون أن أخلع حذائي العسكري الثقيل شددت البطانية فوق جسدي، ورحت أحاول النوم، لكن شريطًا لأحداث هذا اليوم لا يفارق ذاكرتي. سمعت بعد قليل وقع أقدام عسكرية تدب على مقربة مني، فتحت عيني لكن الظلمة الشديدة لم تمكنني من رؤية القادم:

ـ يا دكتور.. يا دكتور.

صحت قائلًا:

ـ من؟

ـ قم حالًا إلى المطبخ فقد سقط أحد الجنود في وعاء الطعام الساخن.

ـ هل احترق؟

ـ فخذاه فقط.

قمت مسرعًا.. ارتديت معطفي وحملت الحقيبة على كتفي وأمسكت سلاحي باليد الأخرى وقلت للجندي:

ـ نبه على سائق العربة أن يكون مستعدًّا.



الخميس أول مايو.١٩٦٩

كان الجو محرقًا، أرواحنا تكاد تزهق من شدة الحرارة، وكنا نتوقع أن العدو في سيناء يكاد يحترق هو أيضًا من شدة انعكاس حرارة الشمس على رمال سيناء، ورغم ذلك كانت عيون الجنود يقظة ومفتوحة من وراء المدافع، والفلاحون الباقون بالقرية يحصدون القمح ويغنون أغنيات الحصاد. وفجأة توقف الغناء وتأهب الجنود خلف المدافع، وأنصت الجميع، وكانت المفاجأة المرعبة: سيل من الصواريخ ينهال على الموقع.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها العدو موقف كتيبتنا ويطلق صواريخه على هذه القرية. كان الوقت أصيلًا، وكان الفلاحون في حقولهم ينهون أعمال ذلك اليوم الشاق.. سقطت قذيفة استطاعت أن تحدث بعض الخسائر.. حريق يشتعل في حقل القمح... حمار يسقط قتيلًا وقد بعجت إحدى الشظايا بطنه، كلب يجري ويعوي.. تلحق به قذيفة أخرى فيسقط قتيلًا هو الآخر. حول الرجال نظرهم عن السماء وهم يهرولون مسرعين يسوقون أمامهم ماشيتهم، النسوة يصرخن في رعب باحثات

عن أطفالهن.. الكلاب تجري مذعورة.. العصافير وطيور السمان والإوز البري تمرق مسرعة بعيدًا إلى البحيرة.. طلقات الصواريخ تقترب من مباني القرية. حملت سلاحي على كتفي اليمنى، وعلى الكتف الأخرى حقيبة الإسعاف، ولبست خوذتي الحديدية وارتميت بسرعة داخل الخندق، وصوت الطلقات ما زال يئز في الفضاء، والشظايا تتطاير وتسقط بجواري.. العدو يلاحقنا بطلقات انتقامية، دار في خيالي شريط طويل مر في ثوان.. صورة لفلاحي قريتنا، صورة للأهل والأصدقاء.. صورة مرعبة قاسية للموت، قذيفة تسقط بجوار الخندق.. التصقت بالجدار الرملي، اهتزت أركان الخندق، رائحة البارود تملأ المكان حتى أكاد أختنق، لا أرى أحدًا، ماذا قد يكون حدث الآن، تحسست جسدي، كنت حيًّا لم أصب بأي إصابة، لكني كنت أتصور أن هناك جرحى وقتلى كثيرين، بدأت حدة ضربات العدو تقل إلى ضربات متقطعة.. رفعت رأسي لأنظر حولي، الحمير تجري في كل اتجاه والكلاب تعوي في ذعر، والحريق ما زال مستعرًا في حقل القمح، الصراخ والعويل يتزايد.. يبدو أن شيئًا ما قد حدث، حملت نفسي خارج الخندق وليحدث ما يحدث، قد يكون هناك جريح في حاجة إلى إنقاذ، كان العدو قد شعر بأنه دمر مواقعنا فتوقفت صواريخه عن العبور إلينا.. كنت أجري كالملهوف باحثًا عن الزملاء في الوقت الذي خرج كل جندي باحثًا أيضًا مثلي عن زملائه، كنا نحتضن بعضنا بعضًا في شوق لا مثيل له ويقبل بعضنا بعضًا، فيتعلق بشفاهنا التراب الذي غطى الوجوه من آثار الطلقات الصاروخية والقذائف التي توالت على مواقعنا. بحثت عن جرحى

فلم أجد، عاد الفلاحون ونساؤهم بنظرات شاردة وفي عيونهم دموع.. سألت:

ـ هل هناك جرحى؟

قالوا:

ـ لم يحدث شيء.. لقد كان الله كريمًا معنا.

وبعد قليل كان الفلاحون قد تجمعوا في أحد أجران القرية.. والتفوا حول أكبرهم سنًّا وأكثرهم حكمة وأخذوا يتساءلون:

ـ ما العمل؟

لقد قرروا الرحيل عن القرية، وبلاد الله واسعة، والرزق في أي مكان.. قال أحدهم:

ـ أيها الرجال، إن الروح غالية لا يساويها أي ثمن، تغور الأرض، ويغور الزرع والبيت، لكن الروح غالية.

ووافقه الجميع إلا رجلًا عجوزًا أبى الرحيل عن القرية، صاح فيهم بصوت متهدج:

ـ يا أولاد الموت في كل مكان.. والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.. وهذه أرضنا ورزقنا.

ولكنهم كانوا قد قرروا الرحيل.

أسرعت النسوة يحملن ما يستطعن حمله من مؤن، والرجال أخذوا يغلقون المنازل ويسحبون الماشية. شاب مفتول العضلات له سحنة مصرية صميمة يلح على والده العجوز ليقنعه بضرورة الرحيل فلا يوافق الأب.. الرجل يصر على البقاء في القرية.

وفي ظلمة الليل كان الركب الحزين يتحرك في طريقه لاختراق

الصحراء إلى الزقازيق.. الدجاج والديوك تصيح، والأطفال يبكون، والرجال يلقون علينا التحية قائلين:

ـ الهمة يا رجال.

كانت كلماتهم هذه كالطعنات الحادة تمزق أحشاءنا.. أصبحت القرية مقفرة تمامًا بعد رحيلهم ولا يسكنها إلا العجوز وحده مع قوات الجيش.

ظللنا طوال الليل وتلك الصور لا تبارح خيالنا.. رحيل القرية في منتصف الليل عبر الصحراء.. العجوز الذي يصر على عدم مبارحة الأرض والقرية.. رائحة البارود وقلب مصر الذي ينزف.



السبت ٣ مايو ١٩٦٩

على أطراف البحيرة وفي الحشائش النامية في الأراضي البور يقف الإوز البري باحثًا عن طعامه، ثم يحلق في مجموعات و«يكركر» في الفضاء. وقد كان الفلاحون يهوون صيد ذلك الإوز، لكن المنطقة كانت قد خلت تمامًا من الفلاحين، وبعض الحقول ما زال بها محصول القمح في انتظار حصاد فات أوانه بكثير.. أجران بها أكوام القمح دون دراس، فقد ترك الفلاحون كل شيء خوفًا من ضربات العدو. لكن العجوز الذي رفض أن يغادر القرية كان كل صباح يخرج حاملًا فأسه إلى قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها ليبذر البطيخ وينقل شتلات البصل، وبالرغم من أن الاشتباكات في المنطقة ما تزال عنيفة، لكن هذا العجوز أصر على العمل وأصر على مواجهة النيران في الحقل بعيدًا عن المخابئ. كان يتلفت حوله بين الحين والآخر ليلمح أسراب الإوز البري وهي تتجه نحو بحيرة المنزلة، ثم يمسح بكفه العرق الغزير المتصبب على جبينه ويواصل عمله في صمت.

تحيرنا في أمر هذا الرجل.. أرسل إليه ضابط الموقع ليقول له إن الضرورة تحتم أن يغادر المكان حتى لا يصاب بأذى.. قال العجوز:

ـ والأرض من يزرعها؟

قال الضابط:

ـ الأرض يا والدي تزرعها اليوم، وغدًا يدمرها العدو.

وتمكن الضابط من إقناع العجوز بالرحيل عن القرية.

في الصباح كنت أعد نفسي للسفر مع بعض الزملاء.. تجمعنا بجرن القرية، حضرت العربة لتنقلنا إلى الإسماعيلية، وعندما هممنا بالركوب رأيت العجوز ينادينا لمساعدته. كان يحمل كيسًا ثقيلًا للغاية.. قال الرجل موضحًا لنا ونحن نهمُّ بحمله:

ـ هذه مسامير المحراث وسلاحه وكذلك رأس الفأس. إن هذه الأشياء هي روح الفلاح يا أولادي.

وأخيرًا استقر العجوز داخل صندوق العربة، وتحركت بنا.. كنا ثمانية جنود والعجوز تاسعنا، وكان برد الصباح ما زال يصفع وجوهنا. كنا نتحدث عن هموم الوطن، وكان العجوز يطل إلى الأراضي الزراعية ويمصمص شفتيه كلما لمح البوار زاحفًا عليها، فيصيح قائلًا في ألم شديد:

ـ ربنا ينتقم منهم.

لم يكن يلتفت إلى حديثنا.. بل كانت عيناه تبحث دائمًا بين الحقول الجرداء والسواقي المحطمة عن جواب لسؤال يلح عليه، وهو كما قاله لنا:

ـ لماذا يترك الفلاحون الأرض والبيوت ويهاجرون خوفًا من الموت؟

انطلقت العربة بين الأراضي البور إلى الطريق الزراعي المرصوف لتقطع ما يقارب من ثلاثين كيلومترًا نحو الإسماعيلية.. اشتد النقاش.. البعض يؤكد أن العدو ذكي ومخادع والبعض الآخر يؤكد أن العدو جبان تهزه أقل هزيمة. والعجوز يتمتم بين الحين والحين وهو يحول بصره نحو سيناء دون أن يلقي بالًا لما نقول:

ـ ربنا ينتقم منهم.

ثم طلب النزول من العربة.. صاح أحد الجنود مشيرًا على السائق بالتوقف، وحملنا العجوز إلى الأرض وكذلك «قفته» وكيسه الثقيل ووضعناهما بجواره بعد أن جلس القرفصاء وهو ما زال يتمتم:

ـ ربنا ينتقم منهم.

وانطلقت العربة واحتد النقاش مرة ثانية، والفلاح العجوز مع متاعه البائس ما زال يتراءى لنا على البعد جالسًا في الصحراء الواسعة بلا هدف ولا مأوى.. يصغر حجمه كلما ابتعدنا عنه ويكبر معه الحقد في نفوسنا ويزداد كأس الهزيمة مرارة على مرارة.



الاثنين ١٢ مايو ١٩٦٩

اجتاحت الجبهة موجة باردة سقط خلالها المطر بغزارة، وكانت الريح تزمجر، حتى إننا كنا نصيخ السمع لنرى هل هناك اشتباك على الجبهة أم لا. الرؤية غير واضحة بالمرة بالرغم من أننا في الظهيرة. الضباب الكثيف يغطي الأرض البور المترامية والتي تتمركز بها مواقعنا، كما يغطي مواقع العدو في سيناء أيضًا. العدو يطلق بعض الطلقات المنفردة والخفيفة وكأنه يتمرد على الطبيعة، حان موعد النشرة الثانية للأخبار.. قال المذيع:

ـ استطاعت القناصة عندنا إصابة جندي إسرائيلي.

قلنا:

ـ خبر عادي.

قال أحد الجنود:

ـ سمعت هذا الخبر حقيقة.. فقد أراد بعض جنود العدو التسلل إلى جبهتنا للقيام بعمليات تخريب.

صمتنا.. قال الجالس بجواري:

ـ لا يهم.

عندما أشرف النهار على نهايته ظهر قرص الشمس أحمر بلون الدم يسبح مرة أخرى خلف مواقعنا في مياه بحيرة المنزلة. جلست أفكر: كيف يجرؤ العدو على التسلل إلى مواقعنا؟ وكيف يكون أثر ذلك على جنودنا؟ هل هي مجرد حرب نفسية، أم أن هناك هدفًا عسكريًّا وراء ذلك؟ كنت مهمومًا للغاية، وانتفضت فجأة، فقد صاح الجندي الواقف لحراسة المبنى الذي نحتله صيحة عالية آمرة:

ـ قف، مَن أنت؟

كان جنديان وكلبان.. قال أحدهما بنبرة واثقة:

ـ يا دفعة نحن مصريان مثلك، نحن من الصاعقة.

اقتربت منهما وقلت:

ـ ماذا تريدان؟

قال الجندي:

ـ أين ضابط الموقع؟

وكان الضابط قد سمع الحوار، فأطل من باب الحجرة صائحًا:

ـ أي خدمة يا دفعة؟

تقدم الجنديان والكلبان ودخلنا جميعنا إلى الحجرة.. وعلى الضوء الخافت ظهرت ملامحهما الريفية الصميمة.. قال الضابط:

ـ ماذا يجب أن نفعله لكما؟

رد الجندي بعد أن أمر الكلبين بالجلوس:

ـ سنعبر إلى سيناء بعد ساعة واحدة عند المنطقة المواجهة لكم على خط القناة.

كانت عيناه تلمعان وكان شعر ذقنه قد نبت بغزارة. أشعل كل

منهما سيجارة وأخذ يشد أنفاسًا عميقة.. وبقلق واضح نظر أحدهما إلى ساعة يده وقال:

ـ ساعة تقريبًا ونتحرك.

ووضع يده على رأس كلبه الراقد بجواره قائلًا:

ـ استعد يا عنتر.

وخيل إليَّ بأن الكلب قد هز رأسه بالموافقة.

كنت في لهفة لمحادثتهما عن منظمة «سيناء العربية».. وعن العمل الفدائي في أرضنا المحتلة. لكن الجنديين انطلقا يسردان لنا كيف يتسللان في جنح الظلام بصحبة الكلبين ليدمرا للعدو منشآته ومعداته، وكيف يعبران القناة، وكيف يتخلصان من كمائن العدو.. أخرج زميلنا الجندي الحلاق علبة سجائره، وبإصرار أولاد البلد أعطى لكل منهما سيجارة، وبعدها بقليل كان الجندي الطباخ قد أحضر بعض اللقيمات المتبقية من عشاء اليوم وطبقًا من العسل، وقدمها للجنديين وألح عليهما أن يأكلا ويطعما الكلبين. أكل الجنديان وتأفف الكلبان من الطعام، وبعد لحظات كان الكلبان يتحركان في قلق جيئة وذهابًا.

انتهى الجنديان من العشاء وقال أحدهما:

ـ الكلاب تعرف ميقات العملية!

قال زميله بعد أن نظر في ساعة يده:

ـ اقترب الموعد يا سيادة الضابط.. اتصل برجالك على خط القناة ليسهلوا مهمتنا..

قفز الضابط الشاب وامتدت يده بسرعة إلى سماعة التلفون الميداني، وبعد كلمات قليلة قال:

ـ نحن نريد أن نقدم لكما أكثر من ذلك.

نهض الرجلان.. اقترب كل كلب من صاحبه.. حمل كل جندي منهما مدفعه الرشاش على كتف وحمل حقيبة أخرى مليئة بالمتفجرات على الكتف الأخرى، ثم ألقى بعقب السيجارة وامتدت يده تضغط على أيدينا بالتحية، ولم نتمالك أنفسنا فاحتضنّاهما وقبلناهما كثيرًا وقلنا في صوت واحد:

ـ ربنا معكما.. وقلوبنا أيضًا.

وانطلق الرجلان ومعهما الكلبان يلفهما ظلام الليل ليعبرا القناة، وبعد ساعات قليلة وربما لحظات ستندلع النيران في موقع ما من مواقع العدو، وربما يستشهدان مع كلبيهما.

ودخلت إلى حيث أنام وخواطر عديدة تجري في مخيلتي، كلها تهاوت أمام هذين الرجلين وكلبيهما، فكيف سيعرف الناس قصص هؤلاء؟ كيف سيعرفون أن هناك رجالًا يدفعهم وطنهم الجريح لأن يقتحموا الموت والخطر في بساطة وبسالة مثل هذين الريفيين.. كيف؟



الخميس ١٥ مايو ١٩٦٩

ارتديت معطفي العسكري ولبست الخوذة الحديدية فوق رأسي، وعندما هممت بالخروج إلى البحيرة اقتربت عربة عسكرية من المبنى الذي نحتله.. وقفت في مكاني.. نزل الخبير الروسي من العربة واقترب منا ليحيينا. ذهبت لأتجول معه، لم أفهم كلماته الروسية، ولكني كنت أفهم من حركات يديه وقسمات وجهه ما يريد. قلت له بالإنجليزية:

ـ هل ترى أن النصر سيكون حليفنا في المعركة الحالية؟

أجاب:

ـ بعض النظام وبعض المسؤولية وتكون معركة تحطيم الإمبريالية على أيديكم.

قررت الذهاب إلى بحيرة المنزلة.. أَجَلْت نظري في الفضاء اللامتناهي والذي يلتحم بمياه البحيرة في صفاء عجيب، لا يشعر به إلا طيور البحيرة وهي تعلو وتهبط على سطح الماء. جلست والألم يعتصرني كلما فكرت في مأساة بلادي، فقد كان فكري يتمزق وأنا

أفكر في الشعب الذي يدفع بلا حساب من أجل معركة ضخمة. لقد أحسست أني أضع حياتي في مخاطرة أحسها بلحمي ودمي، وأحس أن شعبنا يعيش هو الآخر نفس المخاطرة، إنها لعبة الخداع المستمرة للشعب حول تفاهة قوى العدو.

ولم يستغرقني التفكير كثيرًا.. فقد انهمرت صواريخ العدو على الموقع أكثر تركيزًا من ذي قبل. كان العدو يهدف إلى ضرب سرية المدفعية الملاصقة للمبنى الذي نحتله.. جريت بعيدًا لأتفادى الشظايا المتطايرة من حولي، ووجدت بقية جنودنا يجرون هم أيضًا بعيدًا عن مواقع النيران. كنا نلتفت إلى بعضنا بعضًا في أسى، فقد تركنا مواقعنا القتالية وجرينا نبحث عن الحياة.

كان هناك جندي واحد أصر على البقاء بجانب المدفع.. وبعد قليل اتجه الضابط إلى الموقع وأمر الجنود بالعودة إلى مدافعهم والاستعداد للضرب.

وانطلقت صيحات مدوية من الجنود.

ـ يا رب الرحمة يا رب.

نيران العدو لا تهدأ ولا تتوقف، انطلقت نيران مدافعنا تقصف أماكن تمركزه في سيناء، ولكنه شدد من هجماته الصاروخية أكثر فأكثر، جنود مدفعيتنا لم يعد في مقدورهم الاستمرار. قال لهم الضابط:

ـ انتشروا بعيدًا عن المدافع.

لكن الجندي الباسل رفض أن يترك المدفع.. كان المدفع محشوًّا بالطلقات، فضغط الجندي على عمود الضرب وانطلقت القذائف

تصفر نحو العدو.. ركز العدو نيرانه على المدفع وسقطت قذيفة بجواره.. انتشرت الشظايا من حوله وانطلقت صرخة مدوية ثم انقطعت.

قفز الجنود مسرعين ليجدوا ذلك الجندي والدماء تتدفق من رأسه وقد احتضن مدفعه. جريت بعد أن توقف الاشتباك لأرى إصابات هذا الجندي، لكنه كان قد فارق الحياة تمامًا، فقد شجت شظية رأسه.

وقف زملاؤه يبكون من حوله بكاء مرًّا، وسقطت دموعي غزيرة دون أن أدري. نشج البعض ودماء الشهيد تسيل على الأرض السوداء حمراء قانية ورائحة البارود تختلط برائحة الزرع الأخضر، وعلى أكوام التراب وداخل البيوت المهدمة جلس الجنود في حزن وقد أحس كل بفتور شديد وجثة الشهيد مسجاة على الأرض ومغطاة بالحشائش الخضراء.

جاءت عربة الإسعاف لتنقله إلى مقابر الشهداء، حمل الجثة أكثر من عشرين جنديًّا وقد غطت دموعهم ملابس الشهيد الميدانية.. صرخ البعض كالنساء تمامًا، ارتمى البعض الآخر على الأرض خائر القوى، تحركت عربة الإسعاف عبر الطريق الزراعي الضيق المتعرج، ووقف الجميع يبكون ويلوحون للعربة حتى اختفت تمامًا.. قلت وأنا أغالب دموعي:

ـ لا يصح هكذا يا رجال.. هل نسقط نحن أيضًا؟

صاح البعض:

ـ دمه في رقابنا جميعًا.

دق جرس التلفون الميداني.. وجاء الأمر بالتجمع حول المدافع

من جديد والاستعداد للضرب. جرى الجميع بسرعة وارتمى كل على مدفع وانطلقت القذائف مدوية مجنونة، وجاء عبر التلفون الميداني مرة أخرى: لقد دمرت مدفعيتنا مواقع العدو.

في تلك الليلة لم ننم.. كان هناك شيء أكبر من الفرح يبيت معنا في الخنادق.. لقد انتقمنا لزميلنا.. نعم.. لقد وهبَنا دمه شجاعة ونورًا كنا نحتاج إليهما، وعندما انفردت بنفسي تذكرت كلمات الخبير الروسي وقلت: عندما ألتقي به مرة ثانية سوف أصححها له قائلًا:

ـ بعض النظام وبعض المسؤولية وبعض الإخلاص.



الثلاثاء ٢٧ مايو ١٩٦٩

كانت ليلة قمرية.. ضوء القمر الفضي يتسلل داخل طرقات القرية الضيقة، وبين أشجار النخيل تكون الرؤية في مثل تلك الليالي واضحة تمامًا، وذلك يطمئن جنود الحراسة الليلية حيث يمكنهم أن يلمحوا أي شيء يتحرك.

استسلمت للنوم العميق بعد أن لففت جسدي بإحدى البطاطين لأحتمي من وخز الباعوض المنتشر بالمنطقة. استسلم زميلي الصعيدي الراقد معي في الحجرة للنوم وأخذ شخيره يعلو في صوت واضح. نباح الكلاب لا يتوقف، مواء القطط لا ينقطع كلما قابلت كلبًا، نقيق الضفادع في الترعة المجاورة يعلو حينًا ويتوقف حينًا آخر.. وعلى هذه الأصوات جميعها استسلمت للنوم واسترسلت الأحلام تنطلق بلا رابط. الفدائيون الفلسطينيون يبثون الرعب في صفوف الجيش الإسرائيلي، قتلاه يسقطون، الجيش الإسرائيلي يستخدم مدفعيته.

كانت هناك طرقات متتالية على باب الحجرة، كنت أظنها طلقات المدفعية كما كنت أحلم، تزايد الطرق، أفقت قلقًا وصحت:

ـ من أنت؟ ماذا تريد؟

صاح عسكري الخدمة الليلية:

ـ سيعبر جيشنا القناة هذه الليلة.. احمل سلاحك وذخيرتك واستعد.

انتفضت واقفًا.. نظرت في ساعة يدي، كانت عقاربها تشير إلى الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، استيقظ زميلي في الحجرة، كنا نتخبط بعضنا ببعض ونحن نتلهف على لبس الخوذة وحمل السلاح استعدادًا للهجوم، كان صوت الضابط يصيح بشدة مع نداءات عسكري الخدمة الليلية لإيقاظ الجنود، فتحت الراديو «الترانزستور» لأسمع شيئًا عن ذلك من إذاعتنا ولكني لم أسمع إلا الصفير فقط، أطفأت الراديو، وقعت عيناي على غلاف الكتاب الذي كنت أقرأه (أصدقاء العرب) كتبه لفيف من الصحفيين السوفييت، قلت في نفسي: لا بد أن الخبراء السوفييت أيضًا في هذا الوقت يتجولون في المواقع فقد حانت ساعة الصفر.

الموقع الذي كان صامتًا امتلأ بالضجيج، الجنود يتدافعون كالسهام إلى الخنادق، كشافات العدو الضوئية تنفلت إلى أعلى في سماء جبهتنا.. زميلي الصعيدي يتابع حركتها بعينين تلمعان في ظلمة الليل ويقول لي بصبر نافد:

ـ آه.. نفسي أرى أولاد الأبالسة هؤلاء.. نفسي أشفي غليلي.

وانطلق قافزًا إلى الخندق بين زملائنا.

أنفاس الجنود الرابضين وأيديهم على أزناد بنادقهم ومدافعهم الرشاشة تتلاحق ساخنة حارقة، ونبض الدم يتزايد في العروق،

القلوب تدق، والعيون كلها مثبتة على سيناء، آذاننا تصيخ السمع لتتلقف الأمر الذي طال انتظاره، البعض نطق الشهادة والبعض الآخر رسم الصليب على صدره.

ـ الكل مستعدون يا فندم.. على أتم استعداد.

هكذا تحدث الضابط في التلفون الميداني.. وقد صمتنا جميعًا متلهفين لسماع أي شيء عن ساعة الصفر.

ـ الساعة الرابعة والنصف الآن.. نعم يا سيدي.. الموقف جيد للغاية.

ـ ...

ـ سأفعل ولكن لا أعرف ماذا ستكون النتيجة... إنهم متحمسون وكأنهم ذاهبون إلى الجنة.

ـ ...

وضع الضابط السماعة وأخذ ينظر إلينا حائرًا.. وبادره أحد الجنود قائلًا:

ـ لا يبدو ظاهرًا أي شيء يدل على أننا سنعبر الليلة.

وتساءل كثيرون آخرون في أصوات متلاحقة:

ـ متى سيبدأ الهجوم؟

ـ متى سنعبر القناة؟

ـ ماذا ننتظر؟

سحب الضابط رشاشه عن كتفه ثم ركزه على الأرض واتكأ بكلتا يديه على فوهته، وقال وهو يدير نظراته بين وجوهنا المتسائلة المتلهفة:

ـ إنكم رجال.. كلكم رجال.. ونحن نثق بشجاعتكم وإخلاصكم.. لقد كان كل ما حدث مجرد اختبار.. أردنا فقط أن نعرف ماذا ستكونون عليه عندما تحين المعركة الفاصلة.

قال هذه الكلمات ثم حمل رشاشه وانصرف مسرعًا، فقد زمجر كثير من الجنود وألقى بعضهم بخوذته الحديدية على الأرض في حنق.. وجلس البعض الآخر في مكانه ينفخ من الغيظ.. أما أنا فقد شعرت أنني أدور حول نفسي دون وعي مني، إلى أن ارتطمت بزميلي الصعيدي الذي أخذ يصيح ويلوح بيديه في الهواء:

ـ وماذا كنتم تظنوننا سنفعل.. نترك المعركة وننام؟

ـ ليتني قضيت هذه الليلة في الشخير!



الاثنين ٢ يونيو ١٩٦٩

آثرت النوم في تلك الليلة مبكرًا برغم اشتداد طلقات المدفعية، وبرغم الصوت المزعج لانفجارات قذائف العدو، شددت أطراف الغطاء لأخفي وجهي من هجوم البعوض ورحت أغط في نوم عميق، لكني فوجئت بخطوات ثقيلة تتجه نحو الغرفة، ثم ضربات قوية على الباب الذي كنت قد أحكمت إغلاقه. صحوت قلقًا، نظرت إلى ساعتي بعد أن أشعلت عود ثقاب، كانت العقارب تشير إلى الثانية والثلث بعد منتصف الليل. زعق الطارق بصوت عال:

ـ قم.. هناك جرحى في كتيبتنا.

قفزت واقفًا وجسدي يرتعش، وأعددت حقيبتي، وبعد لحظات قليلة كنت قد أحكمت الخوذة على رأسي، وصحبت الجندي الذي جاء ليستدعيني في الطريق إلى العربة التي تحمل الجريح، وكان قد تكوم في صندوقها وهو يصرخ بصوت عال من شدة الألم. قفزت إلى جواره وأمرت السائق بالتحرك إلى المستشفى العسكري الذي يبعد حوالي ١٥ كيلومترًا عن مواقعنا، أخذت

أضمد جراح الجندي وأضع الأغطية تحت فخذيه حتى أريحه قدر المستطاع.

قال الجندي الذي جاء ليستدعيني مشيرًا إلى المصاب:

ـ إنه وطني أكثر من اللازم.

تعجبت وقلت:

ـ ما الذي تقصده؟

ـ احتمى جميعنا بالخنادق في أثناء الاشتباك.. إلا زميلنا هذا.. قرر أن يقف بسلاحه حراسة على المنطقة...

قلت مقاطعًا إياه:

ـ جندي شجاع.

ضحك وقال:

ـ وطنية خائبة لا داعي لها.

كدت أقذفه من صندوق العربة لكن صيحة عالية من جندي الحراسة حالت دون ذلك.. اقترب الحارس يسألَنا عن كلمة السر، فأخبره السائق بها ثم أضاف:

ـ معنا جريح ينزف.

أشار إلينا جندي الحراسة بالمرور.

تحركت العربة.. نظرت للجندي بجواري في ظلام الليل الحالك.. ووددت أن أكمل حديثي لولا أن الجريح صرخ بشدة. قمت إليه وأسندت رأسه إلى صدري وأمسكت بيدي الجراح التي تنزف من ساقه حتى وصلت بنا العربة إلى المستشفى، فسلمناه وعدنا مسرعين يخيم علينا الصمت والسكون.

نظرت إلى ساعتي، كان ضوء الفجر قد تسلل على سطح بحيرة المنزلة، وكانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، فقررت أن أقضي بقية الليل ساهرًا حتى الصباح.

جاءني ذلك الجندي الذي اصطحبني في أول الليل وكان يبدو عليه الأرق.. وقال:

ـ لا أستطيع النوم.

قلت له:

ـ ما رأيك أن نتجول مع شروق الشمس في هذه القرى المهدمة؟

وافقني سريعًا فمضينا صامتين يبلل أقدامنا ندى الصباح، ويطير من جوارنا الإوز البري، وتمرق عربات التعيين مسرعة. دخلنا إحدى القرى، كانت مهدمة تمامًا، اقتربنا من إحدى الترع التي تنمو بها الحشائش الكثيفة، نفذت إلينا رائحة كريهة للغاية.. اقتربنا نستطلع الأمر.. قلت:

ـ يبدو أن أحد الكلاب قد أصيب بشظية قاتلة.

اقتربنا أكثر وتسمرت عيوننا وتجمدت أطرافنا عن الحركة... كدت أصرخ ولكني لم أستطع، فقد كان أحد الجنود ملقى في الترعة محتضنًا سلاحه وقد اخترقت جمجمته شظية من شظايا العدو، كانت الجثة متعفنة تمامًا، ملابسه قد صبغتها شحوم جسده والديدان الصغيرة تنهال على كل مكان فيه، ويبدو أنه قد أصيب منذ شهر تقريبًا، حين فقد العدو صوابه وحطم القرية عن آخرها، كانت جثته ملتصقة تمامًا بقاع الترعة. عندما أفقت من هول المفاجأة، قررت أن أرى أوراقه، نزلت إليه، مددت يدي إلى أزرار سترته، فوجئت بصديري فلاحي تحت، ومن أحد جيوبه الكبيرة أخرجت لفافة من الورق وقد

تشربت تمامًا بشحوم جسده، كان الدود يقفز بين يدي وأنا أفتش بين الورق عن كلمة لم تنمحِ بعد، وقعت على بطاقته.
قرأت:

الاسم: ...
المهنة: فلاح.
البلدة: أبو صوير.
تاريخ الالتحاق: سنة ١٩٦٧.

وعلى البطاقة من الخارج كتبت تلك العبارة: «المقاومة الشعبية».
نظرت في صورته لكنها كانت مطموسة تمامًا، قررت أن أرى وجهه الحقيقي، شددته من كتفيه ونظرت إلى وجهه فلم أتبين له أي ملامح مطلقًا، فأسندته من جديد وقفزت من الترعة إلى حافتها حيث كان يقف مرافقي ذاهلًا... قلت له:
ـ ما رأيك؟
فابتلع ريقه بصعوبة وقال والدموع تهبط غزيرة من عينيه المحمرتين:
ـ كلهم أبطال يا أخي... كلهم أبطال.

الخميس ٧ أغسطس ١٩٦٩

منذ أن وطئت قدماي أرض الميدان وحقيبتي التي تلازمني دائمًا محشوة بالورق والخطابات الجديدة، كنت أحب اللون الأزرق الفاتح، وكنت أستريح وأنا أكتب عليه رسائلي، فهو يذكرني دائمًا بصفاء السماء التي كان اللهب والغبار الأسود خلال الاشتباكات الدامية مع العدو يصبغها بلون آخر تختلف معه الرؤية لكل الأشياء.

كانت رسائل الميدان لها شكل خاص في حياتي، كنت كلما ضقت ذرعًا وكلما أكلني الحنين والشوق للأهل والأصدقاء، تناولت الورق والقلم وأخذت من داخل الملجأ أو الخندق والشمس تلفحني بهجيرها أكتب رسائلي.

أحيانًا أخرى كنت أجد متعة شديدة ومؤانسة حقيقية وأنا أعيد قراءة بعض الخطابات التي كانت تصلني من الأهل والأصدقاء، كان القصف مستمرًّا والانفجارات لا تكف عن الدوي، وكتل الغبار والدخان تحيل وجه السماء الأزرق إلى صفحة متسخة ومغبرة، كنت حينئذ أتساءل: متى يعود وجه السماء إلى زرقته الصافية لتحنو من جديد

على كل شيء في بلدنا المرهق الجريح؟ وتعود بي الذاكرة إلى ذلك اليوم الذي حملني فيه القطار الحربي أنا ومهماتي متجهًا إلى الجبهة، وإلى تلك الرعشة التي هزت جسدي وخفق لها قلبي هلعًا من آثار القنابل والحرائق والدمار الهائل، الذي كانت عربتنا العسكرية تحاول بصعوبة شق طريقها من خلاله، حتى تصل بنا إلى مواقعنا الحربية المواجهة لخطوط العدو مباشرة. رأيت الحقيقة في لحظات سريعة، العلم الإسرائيلي يرفرف على أرضنا.. تلك الليلة كان طولها ألف عام من حساب الزمن.. سقطت مني تلك الحماسة المتدفقة، وحضرتني كلمات كنت قد قرأتها للشاعر السوفيتي «أبليا سيلفنسكي»:

فلتصمت الكلمات

وليتكلم البارود

البارود وحده

وكان عليَّ أن أقطع الطريق على أحلامي الرومانسية وهواجسي الأدبية، وأن أحتل موقعي في الخندق وأعد سلاحي وأحشوه بالذخيرة، وأن تكون رسائلي هي جزءًا من رصاصات بندقيتي.

كانت الجبهة مثل الأتون تزداد يومًا بعد يوم في السخونة والتوتر، والحياة يتدفق فيها الدم الساخن، وبرغم ذلك تعلمنا كيف نجد الحنان والبسمة.. مع حرارة المعارك كانت الرسائل هي الأخرى ساخنة وملتهبة.

جبهة القتال في ١٥ أبريل ١٩٦٩

والديَّ العزيزين،

تحية ساخنة سخونة الجبهة، وأرجو أن تطمئنا عليَّ، وأن تكونا راضيين عما قد يحدث لي، لا أحب أن ينتابكما

القلق عليَّ، فالآية الكريمة تقول: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾.

في الاشتباكات الأخيرة بالمدفعية الثقيلة دمرنا للعدو موقعًا من مواقعه الحصينة المرصوصة قبالتنا على الضفة الشرقية لقناة السويس، وتعجبوا مثلما تعجبنا نحن هنا لخسائرنا، فقد كانت بالتمام والكمال: حمارًا كان الفلاحون قد تركوه يرعى، وكلبين قتلتهما شظايا القذائف الطائشة، كما تهدمت بعض المنازل الطينية، والتي قاومت من قبل عدوان يونيو، خسائرنا في الأرواح قليلة.. اطمئنوا عليَّ.

ابنكم المقاتل بالجبهة

وكانت فرحتي لا تقدر عندما فاجأني مندوب البريد بالوحدة وهو يقذف إليَّ بمجموعة من الخطابات أرسِلت إليَّ في وقت واحد.. فضضتها واتخذت مكانًا في أحد الملاجئ القريبة وأخذت أقرأها واحدًا واحدًا:

المنصورة في ٥ مايو ١٩٦٩

صديقنا العزيز،

وصلتني كلماتك الحادة والقاطعة مثل طلقات الرصاص على الجبهة عندكم كما أتصور.. لا أملك شيئًا أستطيع أن أحدثك عنه، فأنت تعيش حيث توجد الحياة.. وحيث يكون للزمن قيمة.. تحياتي وأرجو أن تكون في أحسن حال.

تحياتي للإخوة الجنود رفاق الميدان ورفاق السلاح.

صديقك المخلص

طويت الرسالة في عناية تامة ودسستها في جيب سترتي العسكرية وأنا أحس بالزهو، ولكني عندما فضضت الرسالة التالية تعجبت.. ماذا يكون قد حدث حقيقة.

القاهرة في ١٢ مايو ١٩٦٩

عزيزنا،

أرجو أن تصلك هذه الرسالة وأنت حي ترزق، الآن كل الأسرة وأنا والأصدقاء لا هَم لهم غير تقصي أنبائك ممن هُم معك أحيانًا ومن البلاغات العسكرية أحيانًا أخرى.. إذا كنت على قيد الحياة فأرسل إلينا أي خطاب حتى نطمئن.

أخوك

لم أتمالك دموعي وهي تزحف ساخنة على وجهي حينما لمحت هذا الخط المتواضع على ظهر الرسالة الثالثة.. إنه خط والدي.. وماذا يا ترى يتصورني الآن وبماذا يفكر بشأني.. وأخذت أقرأ:

المنصورة في ٢٠ مايو ١٩٦٩

ولدنا العزيز،

كيف حالك؟ لماذا لم تحضر في موعد إجازتك الميدانية؟ لقد لعب الفأر في عبنا ونحن لا نعرف عنك شيئًا الآن.. الجرائد والراديو تذيع كل شيء عن الاشتباكات والحرب عندكم، أرجو أن ترسل لنا بأسرع ما يمكن ما يطمئننا عليك وخاصة الوالدة التي لا تجف لها دمعة منذ سفرك.

والدك

كان قد مضى أكثر من عشرة أيام بعد أن طويت هذه الرسالة وأرسلتها بالبريد الميداني.. وكان الهدوء قد بدأ يسود الجبهة بشكل ملحوظ، وتوقف العدو عن اشتباكاته الليلية كما توقف عن الاستطلاع بطائراته في أثناء النهار، لقد كانت فترة لالتقاط الأنفاس. وذات ليلة طال بي السير، وكنت قد أعددت على الموقد الذي كان قد صنعه زميلي ناظر إحدى المدارس الابتدائية بالصعيد، من طلقة فارغة لإحدى القذائف ومن علب الصفيح الفارغة، كنت قد أعددت كوبًا من الشاي، وقررت وأنا أرتشف الشاي الساخن أن أكتب على مهل هذه الرسالة:

الجبهة في ١٠ يونيو ١٩٦٩

الأصدقاء الأعزاء،

تحية قلبية حارة،

لم أكن أنوي أن أكتب إليكم الآن لولا حصول زميلي حامل هذه الرسالة على إجازته الميدانية، والسبب هو أن الحياة على الجبهة قد أصبحت مملة بعض الشيء، فمنذ أسبوع تقريبًا والجو هادئ، حتى الأسلحة الصغيرة توقفت عن الاشتباكات مع العدو. الجنود يعيشون في ملل عجيب، لا يجدون ما يمكن أن يشغلوا به أوقاتهم، لذلك فكثيرًا ما يتجولون في أراضي الفلاحين المزروعة بالبطيخ ليقتطفوا الثمار قبل أن تنضج، كما يقتطفون ثمار الرمان وهي خضراء صغيرة، ويجلس كل منهم يعد الأيام عدًّا حتى يتحرك الزمن ويحين موعد إجازته الميدانية. وقد كاد الملل أن يسيطر عليَّ أيضًا لولا مجموعة الكتب التي أقرأها الآن حول قضية

العدوان سنة ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧ .. وحقيقة لم أجد فارقًا كبيرًا بين الحربين سوى أن الشعب في عدوان ١٩٥٦ أقبل كالسيل للمقاومة الشعبية في بورسعيد، وأن العمال كانوا يعملون لمواجهة أعباء الجبهة. وفي عدوان ١٩٦٧ فإن الملل مثل الكابوس دخل كل بيت وتربع فيه، وهو كثيرًا ما يزورنا في مواقعنا العسكرية.



الخميس ١٤ أغسطس ١٩٦٩

كانت فترات الصمت على الجبهة تفتح أمامنا أبوابًا أخرى نقضي الوقت فيها.. كنت أرتدي معطفي العسكري وأحكم أزراره وأتجول بأطراف بحيرة المنزلة، وأحيانًا بين حطام البيوت المهدمة والمحترقة. لكن الصمت انفجر وما لبثت الجبهة أن اشتعلت بشدة، وعادت السخونة إلى حياتنا من جديد، وعاد لكل شيء قيمته مرة أخرى.

الآن جاءتني رسالة، وانتابني شعور بالذنب.. كنت أود أن لا يفكر فيَّ أحد.. كانت تنتابني لحظات الاشتباك إحساسات طليقة أني وحدي أتحمل مصيري أمام الحرب ومخاطرها، لكن هذه الرسائل كانت كالحجر الثقيل على صدري، جعلتني في كل خطوة أخطوها يحضرني فيلم كامل عن الأهل والأحباب والأصدقاء، ويجعل لكل خطوة أخطوها ألف حساب.

حاولت أن أكتب بعد الظهيرة، لكن اشتباك المدفعية الدائر منذ الصباح بصفة متقطعة قد أسفر عن إصابة بعض الجنود، قمت

بتضميد جراحهم وقلت لنفسي عليَّ أن أؤجل الكتابة حتى قدوم الليل.. وعلى ضوء أقراص الوقود الجاف أخذت أكتب وكنت قد استرحت قليلًا.

الجبهة في ٣٠ مايو ١٩٦٩

والدي،

الحقيقة.. إن الحياة هنا صعبة للغاية، وتمنعني هذه الصعوبة من الانتظام في الكتابة إليكم، فالعدو يكثف اشتباكاته هذه الأيام، وقد كنت اتفقت معكم على أن ما يمكن أن يحدث لي سوف يكون قضاء الله ومشيئته، ويريحني أن تعلموا جميعًا أنني في غاية السعادة حيث أشعر بأني أؤدي واجبي نحو وطني ونحوكم. أرجو يا والدي ألا يكون عطفكم عليَّ يضعفني، فأنا أتألم وأتعذب لأني أحس أنكم دائمًا قلقون عليَّ، وأصدقكم القول إن العدو لا يحرك شعرة واحدة في رأسي، ولكن ما يؤلمني ويقشعر له جسدي، وتسيل الدموع حارة وملتهبة من أجله، هو خوفكم عليَّ وقلقكم من أجلي. أرجو أن أستمد منكم القوة.

ابنكم المقاتل بالجبهة

المنصورة في ١ أغسطس ١٩٦٩

أخي المقاتل على الجبهة،

أرجو أن تكتب خطابًا لتطمئن والدتك لأني كثيرًا ما أراها حزينة عليك يا أخي.. فاملأ أنت قلبها بالشجاعة. أرجو يا أخي عندما تذهب لتستريح أن تجيب على هذه الأسئلة:

١ـ لماذا تتزايد غارات إسرائيل عما كانت من قبل؟
٢ـ تقول إسرائيل إن ٥ , ٢ مليون إسرائيلي سيهزمون دائمًا الـ ٢٠٠ مليون عربي، هل هذا صحيح يا أخي؟

أخوك الصغير

السنة الأولى الإعدادية

ووجدت متعة أن أتناول الأوراق وأن أكتب إلى أخي ردًّا على تساؤلاته.

الجبهة في ٥ أغسطس ١٩٦٩

أخي الصغير،

اختلست بعض الوقت لأكتب لك، وأرجو أن تقبل أسفي لأن الورقة التي أكتب لك عليها ورقة متسخة وقديمة، فقد وجدتها في كراسة تلميذ هاجر من القرية التي تحتل مواقعنا أطلالها، وعندما ستكبر مثلي وتكون رجلًا يمكن أن يستفيد منه الوطن ستعرف أن الفترة التي نعيشها الآن هي أحسن الفترات تاريخيًّا ومصيريًّا، فنحن شعب فقير يشتري بنقوده القليلة أسلحة ليحارب بها إسرائيل، قاعدة الاستعمار الأمريكي المتوحشة في وطننا العربي، ولكي نحارب الاستعمار ونهزمه يجب إلى جانب حمل السلاح أن نبني الاشتراكية في بلدنا، وبناء الاشتراكية يحتاج إلى رجال يفكرون من صغرهم من أجل مصر، همومهم هي الوطن وهي العدوان والتخلف والفقر، لا بد أن تقرأ كثيرًا عن تاريخ الشعب المصري وكفاحه حتى تكون لك يد في بناء مستقبله.

أما عن الاشتباكات مع العدو، فقد أصبحت غالبًا

تقع بالليل، فعندما ينتصف الليل يطلق العدو قذائفه المضيئة كالشمس ثم تنهال قذائفه المتفجرة على مواقعنا من مدفعيته، وهذه الأيام تحدث عندنا خسائر قليلة لأننا ـ كما قلت لك في إجازتي الماضية ـ نختبئ في الخنادق، وتتركز خسائرنا في الكلاب والحيوانات الطليقة والأشجار التي تتساقط.

إن الأبطال الحقيقيين هم الذين يحملون السلاح الآن ويتجولون على طول قناة السويس ليصدوا العدوان عن الوطن، وهم الجنود وراء مدافعهم يصبون كل يوم وابلًا من القنابل والقذائف، التي تشعل الحرائق اللاهبة في مواقعهم عند كل اشتباك، وهم أيضًا هؤلاء الأطفال الصغار الذين كتبوا على الجدران الطينية المهدمة، في القرى المهجورة على خط القناة، كتابات كثيرة ليقولوا: «النصر لنا»، «القناة لنا»، «يسقط الاستعمار الأمريكي». وعندما أقرأ هذه الكلمات ينشرح صدري لأن الصغار في مثل سنك يفهمون المعركة أيضًا.

تحيات قتالية ساخنة.

أخوك المقاتل

عودتني تجربتي في الميدان بين الجرحى والمصابين والشهداء... أن أنظر للحياة بشكل آخر.. فالحزن يجب أن يكون عابرًا ويجب أن يفكر الإنسان بشكل آخر أمام تلك الأحداث فتتحول عواطف الحزن عنده إلى طوفان من الحقد على العدو ومحيط شاسع من الحب الصافي للوطن.

الجبهة في ٦ أغسطس ١٩٦٩

عزيزي،

تسألني في خطابك باستغراب عن الجرحى والشهداء وكيف لا يشيب شعر رأسي لمنظر الأشلاء والقتلى. ولا أكتمك أن قلبي ما زال بخير ولم يتحول إلى حجر أصم بعد، ولكن الحرب يا صديقي تفرض علينا حقيقة جديدة، وهي عندما تسقط الأشياء الغالية التي يتفاخر بها الإنسان زمن السلم تحت قدميه في لحظات، وعندما لا يصبح هناك شيء ذو قيمة يمكن أن يخاف عليه الإنسان، عندئذ يكون الوطن هو الأب والأم والابن والحبيبة، هو كل شيء، وأمامه تهون تلك التضحيات مهما كبر حجمها ويصبح لكل شيء معنى جديد لم نعتده من قبل.

تتناهى إلى سمعي الآن أغنية عبد الوهاب القديمة «في الليل لما خلي»، كم تهزني هذه الأغنية وتشعرني ببلادنا وهي تجتاز الطريق وسط ظلمات دامسة، إنها تحتاج إلى ملايين الشموع، ألست محقًّا في ذلك؟

تحياتي من أرض الميدان.

صديقك المقاتل

دخل العدو بطائراته إلى جانب المدفعية الثقيلة، وزاد نشاط قواتنا الخاصة في العبور إلى مواقعه، وكان القلق يسيطر علينا تمامًا، فأجلت إرسال الخطابات، واستغرقت في عمليات نقل الجرحى والإسعاف، وذات يوم جاءني مندوب البريد يحمل إليَّ مجموعة من الخطابات ألقيتها في حقيبة الإسعاف، وفي الليل وبعد عناء يوم طويل مرهق مددت جسدي على البطانية، وبرغم القصف المدوي إلا أني كنت

في شوق أن أسمع كلمات بعيدة عن السلاح وعن العدو، وفضضت الرسالة في يدي وأخذت أقرأ:

المنصورة في ٨ أغسطس ١٩٦٩

صديقي المقاتل،
وصلتني كلماتك الحادة والقاطعة كطلقات الرصاص.. شعرت بدوخة وأنا أقرأ الرسالة، وخجلت أن أرد عليك، وتأخرت لذلك في الرد، ولكن لا مفر فقلبي يدق بعنف وأنا أتخيلك في الميدان، إنك رجل دائمًا وأتمنى أن تكون في أحسن الأحوال، تحياتي للإخوة جنود الميدان ورفاق السلاح.. أريد أن أقول لك كلامًا كثيرًا، لكن الكلمات تعجز وتصبح هزيلة عندما تصلك في أرض لغتها الدم والبارود.

صديقك المخلص

ثم فضضت الرسالة الثانية.. كان الخطاب متسخًا.. ولم أعهد الخط المدون عليه من قبل، كان بداخله صورة لمجموعة زهور حمراء، قرأت:

ميدان القتال

أخي المقاتل،
كل سنة وأنت طيب
النصر لمصر.
أيها البطل العزيز الرابض على خط النار.

أخوك الصغير
طالب بالسنة الرابعة الابتدائية

احتفظت بهذه البطاقة وهداني تفكيري أن ألصقها على جدار الملجأ حتى لا يغيب عن ذهني ذلك الطالب الصغير الذي لا أعرفه.. ثم فضضت الرسالة الثالثة.. وكانت تحوي أكثر من مائة توقيع بأقلام مختلفة، رصاص وحبر أزرق وأحمر.. واقتربت من ضوء السهاري وأخذت أقرأ في شغف ومتعة:

المطرية في ٧ أغسطس ١٩٦٩

صديقنا المقاتل،
تحية حارة مخلصة،
من أحد المواقع الثورية بالجبهة الداخلية التي تؤمن بعدالة قضيتنا وحقنا في الحياة مهما قدمنا في سبيل ذلك من تضحيات، ومن قلب كل شيخ وشاب وفتاة، باسمنا جميعًا نحن الدارسين بمشروع محو الأمية، نشد على أيديكم ونطالبكم بالمزيد من الضربات للاستعمار. دافعوا أيها الأبطال عن حق الشعب العربي في البقاء والحياة الكريمة، متضامنين مع الشعوب الحرة التي تكافح الاستعمار: كوريا ـ كوبا ـ فيتنام التي دفنت رأس أمريكا في التراب، وإننا لنعاهد جنودنا على الجبهة أننا سنفتدي مصر بالروح والدم وبكل ما هو غال وعزيز.

مشروع محو الأمية بالعصافرة ـ المطرية

ما زالت الدنيا بخير، طويت الرسالة بعناية.. القصف يزحف من مكان آخر.. جندي الحراسة الليلية أطفأ «الترانزستور» وقفز في الخندق مسرعًا وهو يقول:

ـ إن الطائرات المعادية تقصف قريبًا منا.

قلت له:

ـ تخندق وترقب ما يحدث.

ثم فضضت الخطاب الأخير.

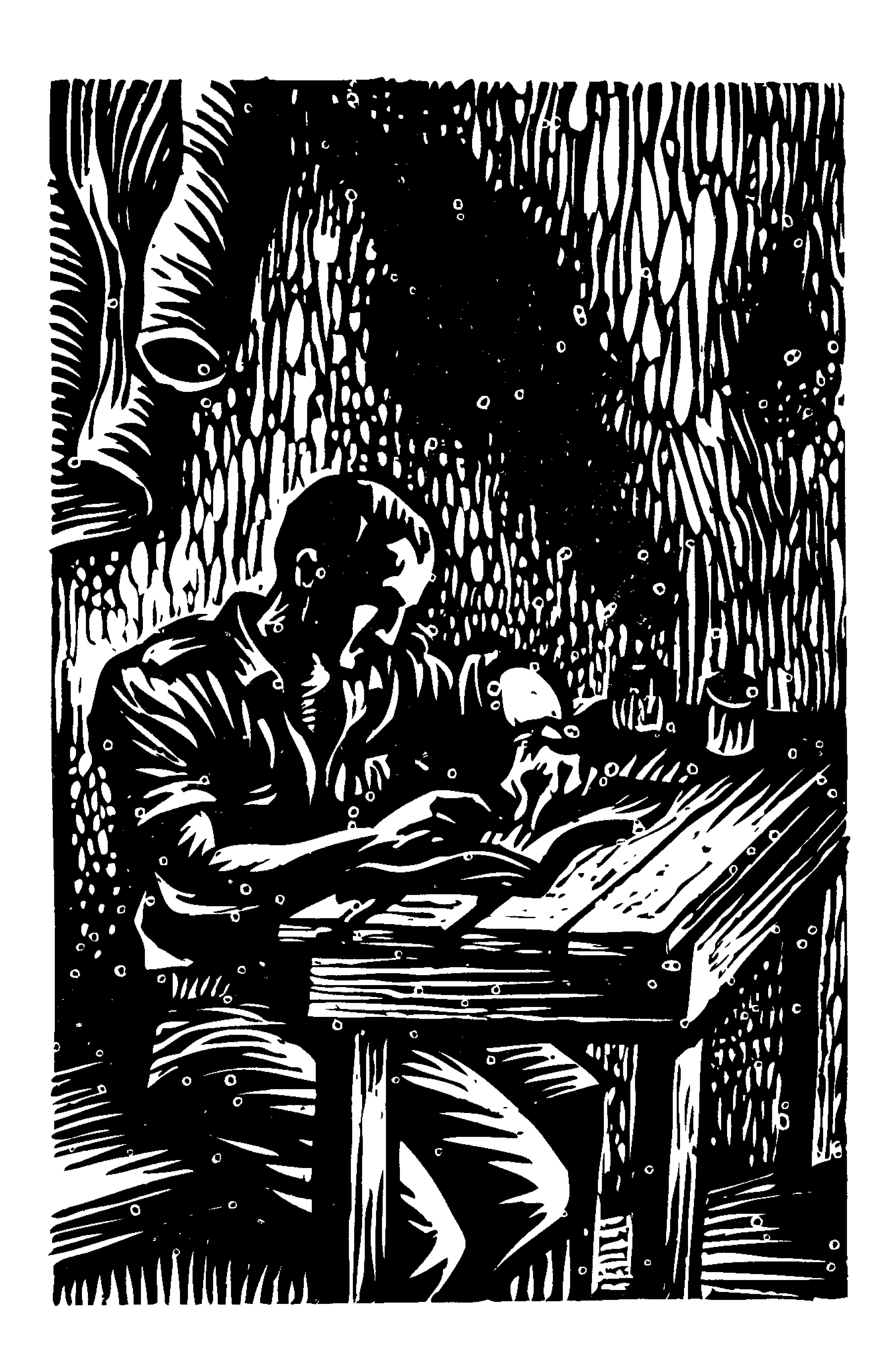
المنصورة في ٩ أغسطس ١٩٦٩

صديقي،

أحسست بالخجل عندما تسلمت رسالتك من ساعي البريد، خجل مبعثه عدم الرضا عن نفسي، خجل لإحساسي أنني أبتعد عنك وأنت برغم هذا البعد تذكرني، أنتم يا من تذودون عن حياتنا، كيف ننساكم وننصرف إلى مشاكل الحياة السطحية؟! هذا هو حال شبابنا اليوم يا أخي، فشتان بين ما عندكم من مخاطر وبين ما نحن فيه من عدم الاكتراث.

صديقك المخلص

طويت الرسائل جميعها وكومتها تحت طرف البطانية، ثم تمددت وغطيت رأسي ببطانية أخرى، وقد سرح فكري في بلدتنا، وراح خيالي يجوب شوارعها، وقلبي يسألني متى تصفو الأيام وتعود لمصر سماؤها الصافية المشرقة. فتسترد قرانا أبناءها الراقدين على رمال قناة السويس، لتأنس بهم وترتاح إلى جدرانها الطينية أرواحهم، وتفرح البنات والصبايا برجالهن الذين عادوا منتصرين، وظل خيالي يمرح طليقًا في كل الأماكن الحبيبة، ويمسح بالحنين وجوه الأهل والأصدقاء إلى أن رحت في النوم.



الأحد ١٤ سبتمبر ١٩٦٩

هو عامل خراطة في أحد الورش، ولكنه الآن يعلق شارة الجبهة الحمراء في أعلى ذراعه الأيمن، وداخل السترة يضع كراسة متسخة الغلاف، لا تستطيع أن تقرأ عليها إلا هذه الكلمات: «المؤلف والكاتب الكبير المقاتل...»، في كل صباح يتجه إلى أشجار النخيل التي تحيط المبنى وينتزع منها جريدتين ويتجه إلى مكان بعيد ثم ينحني لينتزع جريدتين كان قد غرسهما من قبل ليضع الاثنين الخضراوين، ويقف قليلًا ويتمتم ثم يعود إلى قدور الطعام وينحني عليها لينظفها.

أخيرًا عرفنا سر ذلك الجندي، ففي ذلك المكان الذي يتجه إليه كل صباح يرقد أحد الكلاب، كان قد مات إثر إصابته بشظية من شظايا العدو، فحمله ودفنه وظل وفيًّا لذكراه، مواظبًا على غرس الأوراق الخضراء فوق قبره.

جاءني أحد الجنود يلح في كتابة خطاب له، انطلقت المدفعية المضادة للطيران تصنع آلاف النجوم في عز الظهيرة، طائرات العدو تلقي قنابلها على المنطقة، ألقيت بنفسي وزميلي في الخندق، كانت الورقة ما تزال في يدي، أصر أن أكتب له الخطاب.. فقلت له:

ـ أليس من الواجب أن نأخذ حذرنا أولًا من الانفجارات الدائرة؟
قال:
ـ اكتب لي.. ربما يكون هذا آخر خطاب.
فأمسكت يدي بالقلم وثنيت الورقة وأخذت أكتب والأرض تهتز من شدة الانفجارات حولنا، كانت عيناه تنغرسان في الورقة محاولًا قراءة ما أكتب.. قال:
ـ اكتب لهم.. إني قريبًا سأحضر لهم رأس «موشي ديان».
تعجبت. قال:
ـ فلاحو قريتنا يستحلفونني أن أحضر لهم رأس «موشي ديان».
أسقطت طائرة من طائرات العدو قطعة من جسدها وأسرعنا مع بضع الجنود إليها، طلقات الأسلحة الصغيرة توجه إلينا، رقدنا على الأرض وظللنا نزحف، انفجر ذلك الجزء واحترق.. قال أحدنا:
ـ لا بد أنه الخزان الاحتياطي تخلصت منه الطائرة.
في المساء توقفت إحدى عربات «الزل» لتفرغ حمولتها من طلبة الجامعات المتطوعين لخدمة الجبهة. التف الجنود حولهم وهم سعداء للغاية.. وقالوا:
ـ إن الشعب ما زال يتذكرنا.
قال بعض الطلبة:
ـ جئنا لنرفع روحكم المعنوية.
ضايقتنا تلك الكلمة، فنحن لا نريد الثرثرة، وفي الليل دارت مناقشة طويلة، جنود الجبهة يصرون على إقناع الطلبة بأن العمل الرئيسي لهم يجب أن يكون إعداد المخابئ وتحصين المنطقة،

ثم بعد ذلك يمكن أن يكون هناك حوار فكري.. تأفف البعض من الطعام، وقال واحد من بينهم:

ـ كنا نظن الجبهة أحسن من ذلك.

قلنا لهم:

ـ فلتعملوا ما في استطاعتكم حتى تكون كما تتمنون.

لا يجب أن يكون الكلام هو ثروتنا، بل العمل. إن رصاصات العدو هي أبلغ من كل ثرثرة، فهي تعلمنا كيف نكيل له الضربات، وهذا هو علاج القضية.. قال واحد منهم:

ـ قال لنا قادة الاتحاد الاشتراكي: «إن مهمتنا هي أن نرفع روح الجنود المعنوية وأن نعلمهم».. لكن يبدو أننا سنتعلم منكم، وأنكم أنتم الذين سوف ترفعون روحنا المعنوية.

سأل طالب بعض الجنود المتحمسين عن مهنتهم قبل التجنيد:

ـ مزارع.

ـ سائق أجرة.

ـ عامل خراطة.

ـ طالب.

الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٩٦٩

تمكنت إغارات الطيران الإسرائيلي على مواقعنا من إلحاق خسائر فادحة بالفلاحين، وبرغم ذلك أصر البعض منهم على البقاء، ولكن هؤلاء تركوا القرية وعاشوا في العراء وسط مزارعهم. ومنذ أسبوع انقطعت المياه عن الترعة الوحيدة التي تروي أراضي المنطقة، سقطت فيها أكثر من قنبلة وقذيفة مدفعية، تدفقت منها المياه العذبة إلى البحيرات المالحة، وجفت الترعة تمامًا من الماء الصالح للري.

وكان قرار باقي الفلاحين هو الرحيل إلى محافظة الشرقية بحثًا عن الرزق في أرض آمنة. أصبحت المنطقة خالية منهم تمامًا، الزرع الأخضر يذبل ويتساقط من العطش. أحد الفلاحين ترك حماره الذي أصيبت إحدى أرجله بشظية إصابة خفيفة، الحمار يتجول وسط الخضرة الذابلة يأكل وينام ويجري مذعورًا عندما تنطلق المدفعية تدوي وتعلو انفجاراتها، كنا نحس بالألم، وبتنا نشعر أن ذبول الزرع في أرضنا الطيبة هو ذبول في نضرتنا أيضًا، وجفاف للدماء التي في عروقنا.

أصبحت الأرض مقفرة والقرية أطلالًا تملأها الكلاب تسكن فيها وتتناسل، حتى القطط تكاثرت بشكل ملحوظ، نباح الكلاب لا ينقطع، أصبح يشكل ضررًا بالنسبة لنا، ففي الليل الحالك لا يتوقف نباحها. همس لي أحد الجنود ذات مرة:

ـ هذا النباح أشك فيه.. ربما يكون أحد جنود العدو قد تسلل إلى منطقتنا.

ويزداد النباح وتزداد الشكوك، لكن الكلاب تؤنس المنطقة وتجعل للأطلال المهدمة قيمة، فنباحها يشعرنا بأن هناك قطعة من ريفنا ما زالت موجودة.

قرانا المهدمة تسكنها الكلاب والقطط، وجيوش الذباب تطن في شوارعها. في أحد البيوت قد تجد فأسًا تآكلت من الصدأ، أو جاروفًا أو منجلًا معلقًا على الحائط، لا بد أن صاحبه يصر على العودة.. اتفقنا فيما بيننا ألا نعبث في الأدوات الزراعية التي تركها أصحابها.

وفي هذا الصباح كنت أقف داخل الخندق.. مجموعة من الرجال تمر بالقرب مني.. لم أصدق عيني، دعكتهما بكفي مرات حتى أرى بدقة، قفزت خارجًا من الخندق، كانوا مجموعة من الفلاحين يحملون الفؤوس والعصي، ألقوا عليَّ تحيتهم، فرحبت بهم وأنا أكاد أطير من الفرحة.. قال أحدهم:

ـ جئنا لنزرع الزراعة الشتوية.

قلت:

ـ والمياه؟

قالوا:

ـ سنذهب ونصلح ما أصاب الترعة من تخريب.

وبالرغم من أن الاشتباكات تجددت ثانية في تلك الساعة المبكرة، إلا أنهم قرروا الذهاب على الفور إلى الترعة لإصلاحها.. وهم يقولون بعزم:

ـ إذا أصابتها مدفعية الإسرائيليين، فسوف نصلحها مرة ثانية وثالثة وعاشرة إذا لزم الأمر.

بعد دقائق تسرب النبأ إلى جنود المنطقة.. كل من يلتقي بصاحبه يقول له في فرح شديد:

ـ ألم تعرف..؟ لقد عادوا ثانية.

ويسأل زميله:

ـ من؟

فيجيبه:

ـ الفلاحون..!



السبت ٢٠ سبتمبر ١٩٦٩

كانت أشعة القمر تتسلل داخل القرية المهدمة، وكان الهواء المنعش يهب علينا قادمًا من بحيرة المنزلة، وجندي الإشارة يتجه مسرعًا ليبلغ الجنود قائلًا:

ـ الليلة ستعبر من أمامنا وحدة من قواتنا الخاصة.

ونحن نفهم أنه في ليالي العبور يجب أن تظل جميع أسلحتنا على أتم استعداد حتى الصباح وحتى تنتهي قواتنا الخاصة من تنفيذ مهمتها.. جنود المدفعية في يقظة تامة وعلى استعداد في أي لحظة لإطلاق النار على مواقع العدو في سيناء.

زميلنا الذي يرقد على حافة القناة وقد خبأ التلفون الميداني تحت معطفه العسكري حتى لا يسمع صوته أحد من جنود العدو.. يجيئنا صوته عبر الأسلاك قائلًا:

ـ وصل جنودنا.. إنهم جاهزون للعبور.. يدخنون بغزارة وبعضهم يدندن بأغنيات عن الوطن والأهل.

ارتعشت أجسادنا ونحن نحتل أماكننا بطول الخنادق وأسلحتنا

على أتم استعداد للاشتباك. اهتز التلفون من جديد، وقال زميلنا الرابض على حافة القناة عبر التلفون الميداني:

ـ الصمت يخيم على الجميع الآن إلا من رشفات أكواب الشاي وتدخين السجائر.

ـ لحظة الصفر اقتربت.

احتضن كل منا سلاحه وتحسس ذخيرته.. انطلق الجندي النوبي الأسمر الذي يقف بجواري في الخندق يغني بالنوبية أغنية لم أفهم معناها، لكنها كانت مؤثرة للغاية. دق جرس التلفون، سكت الجندي النوبي وقال الذي على شاطئ القناة:

ـ الآن يعبر مياه القناة الزورق الأول يحمل رجالنا.

وكانت تصل آذاننا صيحات خافتة تقول:

ـ ربنا معكم.. ربنا معكم.

لم نتمالك عواطفنا.. انطلق الجندي النوبي يغني من جديد، صوت خرفشة في الحشائش القريبة منا، أحد الجنود يزحف ليستكشف الأمر ويعود قائلًا:

ـ إنه أحد الكلاب.

التلفون يدق من جديد:

ـ القارب الثاني يحمل رجالنا عبر مياه القناة.. كونوا على استعداد لتحموا ظهور الرجال.

رقدنا في يقظة تامة.. عيوننا تخترق الظلام والجدران المهدمة.. آذاننا تصغي لكل حركة.. قال الذي بجواري:

ـ لو كنت معهم.. إنهم أبطال.

قال آخر:

ـ نحن نسند ظهورهم أيضًا.

فجأة انطلقت قذيفة تصفر في الفضاء وتعبر القناة لتنفجر في مواقعنا.

قلنا:

ـ لا بد أن العدو اكتشف العملية.. إذًا ستكون ليلة مشهودة.. قتال بالسلاح الأبيض وقتال بالمدفعية.

كنا نتمنى أن نقفز من خنادقنا إلى سيناء لنكون مع هؤلاء الرجال. إن رؤوسنا تكاد تنفجر ونحن نفكر فيما يفعلونه الآن، هل أصابوا الهدف فأطلق العدو هذه القذيفة من مدفعيته؟ مدفعيتنا تلتزم الصمت.

غرقنا في الاستفسارات، طلقة مضيئة من العدو تبدد الظلام تمامًا، أصوات عديدة تتسابق لتلقي الأوامر إلى المدفعية بالتزام التوقف عن إطلاق النار، نعم.. حتى لا يعيق القصف رجالنا في نضالهم مع العدو. مرت ساعة، ساعتان، انطلق زميلنا النوبي يغني من جديد، قال:

ـ لا بد أن الرجال يكيلون للعدو ضرباتهم المتلاحقة ما دامت مدفعيتنا لم تشتبك حتى الآن.

دق التلفون، جاءنا صوت الجندي الذي يرقد على شاطئ القناة.. قال:

ـ عاد الزورق الأول والثاني.. الجنود يقبلون بعضهم بعضًا.. يحملون اثنين من الجرحى.. يقولون: «لقد دمرنا الهدف، وزرعنا المتفجرات في كل مكان».

وفي خنادقنا كنا نتبادل القبلات.

كان الليل قد أشرف على نهايته وضوء النهار يكتسح أمامه ما تبقى من سواد الليل. لم أستطع النوم، وكذلك زملائي أيضًا.. كنا نود فقط أن نستريح، لكننا فوجئنا بالمدفعية المضادة للطيران تنطلق بشكل صارخ، والتفتنا إلى السماء لنجد طائرات العدو تحلق على ارتفاع شاهق.

قلنا:

ـ لا يهم، لقد أصبنا الهدف.. والدليل هو هذا الهجوم المحموم.



الجمعة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٩

أصبح من الواجب على الإنسان منا وهو يمشي بمحاذاة القناة أن يكون حذِرًا، ففي بعض المناطق الممتدة بطول الجبهة يرقد بعض القناصة الإسرائيليون يتحرشون بعرباتنا ويطلقون عليها الرصاص، وكثيرًا ما كان السائق يسرع بسيارته حتى يبتعد عن المدى المؤثر لطلقات العدو.. في ذلك الوقت يفتح جندي القناصة المصري نيران بندقيته على الجندي الإسرائيلي فيفر ويختبئ خلف الدشمة، ولكنه يعود من جديد، لذلك فلا بد أن نأخذ حذرنا في تلك المناطق.

مرت فوق رؤوسنا طائرتان للعدو، قابلتها مدفعيتنا المضادة بعنف، فعادتا من جديد وألقتا بحمولتيهما من المتفجرات في مياه القناة.. المدفعية الثقيلة للعدو تفتح فوهاتها علينا.. اختبأ كل منا في أقرب مكان ليحمي نفسه من الشظايا المتطايرة.. الفلاحون أيضًا يرقدون على بطونهم فوق الأرض التي يستزرعونها بلا حراك، وبعد أن ينتهي الاشتباك تعود الحياة من جديد، يفلح الفلاح أرضه،

ويذهب كل جندي إلى حيث يقصد وكأن شيئًا لم يحدث. كان الطريق طويلًا، وكان العرق يتصبب منا مختلطًا بالرمال والتراب، وبعد مدة غير قصيرة لحقت بنا إحدى السيارات العسكرية، استوقفناها وألقينا بأجسادنا داخل صندوقها، تشكيلة مختلفة من الجنود.. ذاك يلبس الخوذة الحديدية وفي يده سلاحه، وهذا بملابس الإجازات ومعه لفافة، وذاك يحمل كيسًا للبريد، وآخر مستغرق في قراءة جريدة تطل منها صورة كبيرة عن الجنازة التي أقيمت للمقدم البحري الذي استشهد في المعركة حول جزيرة شدوان.

قال جندي البريد:

ـ أليس هناك غيره استشهد في المعركة؟

قال الذي بجواره:

ـ هم يهتمون بالرتب الكبيرة فقط، فهم وحدهم الشهداء، أما نحن فكلاب أولاد كلاب.

ثم بصق، وطارت بصقته من صندوق العربة إلى عرض الطريق.

قال جندي كان يجلس معنا:

ـ استشهد الكثيرون من الجنود أمثالنا، فلماذا لا نحتفل بهم؟ أليس ذلك عجيبًا؟

حسم صاحب الجريدة الحوار، فقد مزقها وألقى بها إلى الطريق.

عند إحدى نقط تفتيش الشرطة العسكرية توقفت العربة، ولمحنا أحد الجنود على البعد يجري نحونا وهو يزعق طالبًا أن يركب معنا.

امتدت الأيدي تمسك به حتى ألقى بجسده معنا داخل صندوق العربة، وما إن اعتدل في جلسته حتى برزت علامة معلقة على كتفه كتب عليها: «الاستطلاع»، والذي لفت نظرنا أكثر أن هذا الجندي كان يحمل معه بندقيتين آليتين، واحدة نظيفة جدًّا، والثانية يعلوها الصدأ بشكل ملحوظ، وكذلك جراب الذخيرة وقد صدئت الذخيرة بداخله فصبغته بلون بني قاتم.

قلت في نفسي لا بد أن للبندقية قصة هامة، فإما أن صاحبها قد ألقى بها في أي مكان وهرب، أو أنها انتشلت من الماء. ولما لمح الجندي ما يعلو وجوهنا من علامات الدهشة والاستفسار نظر إلينا نظرة اختلط فيها الحزن بالفخر وقال:

ـ الله يرحمه.. مات شهيدًا بحق.

قلنا له في صوت واحد:

ـ من؟

قال وهو يمسك بالبندقية الصدئة ويلفها في يده:

ـ صاحب هذه البندقية.

ارتعشت أجسادنا واقشعرت، وطلبنا منه أن يتكلم... قال:

ـ تذكرون العبور الذي حدث في جزيرة «البلاح» منذ أسبوعين؟

قلنا:

ـ نذكر.

قال:

ـ لقد اشتركت في هذه العملية أنا وزميلنا الشهيد. كنا بعد أن عبرنا

القناة متسترين بظلمة الليل في مهمة لاستطلاع قوات العدو المواجهة للمنطقة، وبعد أن حصلنا على المعلومات المطلوبة وزرعنا الألغام اللازمة، عدنا من جديد والظلام الدامس لا يسمح للإنسان بأن يرى قدميه وهما تمشيان على الأرض، لكننا سمعنا أصوات همس خفيفة فاستدرنا وفتحنا نيران بنادقنا، وأطلق العدو طلقات طائشة. كان علينا أن ننسحب على إثرها بسرعة، وعادت القوة تعبر القناة إلى الضفة الغربية من جديد، بينما ظل زميلنا يستر عملية الانسحاب بطلقات متوالية من بندقيته. مر أسبوعان كاملان بعد ذلك، وبعضنا يخمن أنه أسر والبعض الآخر يظن أنه ربما يكون قد فُقد.

وفي هذا الصباح كنت ومجموعة من زملائنا في الاستطلاع نتجول بحذر على شاطئ القناة، فظهرت أمامنا جثة أحد جنودنا طافية على سطح الماء، فنزلنا إليه وحملناه.. وكانت مفاجأة مذهلة لنا، فقد كانت جثةَ زميلنا وكان في وضع استعداد قابضًا على بندقيته هذه.

قالها وهو يحرك أمام أبصارنا البندقية الصدئة، ثم التفت إلينا وقد أنصتنا جميعنا إلى كلماته دون أن نلقي بالًا لمطبات الطريق التي كانت تتقاذفنا بقسوة.. ثم واصل حديثه وقد ثبت بصره على فوهة البندقية:

ـ كان قابضًا عليها بقوة وفي الماسورة طلقة.

ثم أخذ يرينا الطلقة.

ـ لم تنطلق كما كان يجب، فقد سقط في الماء وفي رأسه رصاصتان، وظل في القاع لمدة أسبوعين.

وصمتنا فلم يعد هناك شيء يمكن قوله، العربة ما زالت تئز وهي تقطع الطريق مسرعة.. توقفت.. نزل الجندي وقد احتضن السلاح الصدئ تحت إبطه، ومضت العربة ثانية ونحن ننظر إليه من الخلف والبندقية بارزة من تحت إبطه لا تختفي عن أنظارنا.



الخميس ٢ أكتوبر ١٩٦٩

ما زلت أذكر يوم أن توقفت العربات العسكرية لتفرغ حمولتها من شباب الجامعات المتطوعين لخدمة الجبهة في وحداتنا المقاتلة منذ خمسة عشر يومًا. قال لي رئيس اتحاد طلاب إحدى الكليات الأزهرية:

ـ نحن لا يهمنا الموت.. نحن نريد أن نتعاون مع جنودنا البواسل وفي أي مكان.

سألته:

ـ كم طالبًا جاؤوا إلى الجبهة؟

قال:

ـ من جامعة الأزهر فقط خمسمائة طالب قبلناهم من بين ١٥٠٠ طالب تقدموا لخدمة الجبهة، وكانت مشكلة تخلصنا منها عن طريق الكشف الطبي.

والحقيقة أنه من أول لحظة اندمج طلبة الجامعة مع المقاتلين، حمل كل طالب الفأس والمجرفة وأخذ يعمل حتى تصبب منه العرق غزيرًا، وكلما طلب منهم الجنود أن يستريحوا قليلًا قالوا في حماسة:

ـ راحتنا في أن نضع على ملاجئكم أكبر كمية من الرمال حتى يمكن أن تحميكم من شظايا العدو.

وتحت لهيب الشمس المحرقة تجد طلبة كليات الطب والعلوم والهندسة وهم يحملون الفؤوس، ويقسمون أنفسهم إلى مجموعات، فهؤلاء يحفرون الملاجئ، وهؤلاء يعمقون الخنادق، وهؤلاء يساعدون الجنود في تمويه المنطقة، وعلى سيارات توزيع الطعام تجد طالب اللغة العربية وأصول الدين يقوم بتوزيع الغذاء على الجنود أو يحمل على ظهره قطع الخشب وأجولة الأرز إلى المطبخ وهو في غاية السعادة.

وعندما تنسدل ستائر الليل على الجبهة، فإنها تكون مظلمة للغاية، خالية من أي بصيص من الضوء. لكن عيون الآلاف من جنودنا تخترق هذا السواد الحالك، والأيدي على الزناد تحرس أرض الوطن من تسلل العدو ومن غدره. وداخل الملاجئ المحفورة بعمق تحت الأرض، وحول الضوء الخافت المنبعث من مصباح صغير، يجلس الطلبة والجنود في دائرة واسعة وهم يرتشفون أكواب الشاي، ويدور حديث حميم عن مشاعر الشعب وثقته في جنوده، وكثيرًا ما يلتهب الحديث عن جرح مصر الغائر، وعن قضية فلسطين، وعن الاشتراكية، وكيف نسخر كل إمكاناتنا من أجل معركة الخلاص.

في مكان آخر تمكن طلبة الجامعات من تنظيف أحد المساجد المهدمة، ثم دعوا الجنود إلى الصلاة، وبعدها دار نقاش أيضًا حول الجهاد في الإسلام. لقد ذابت تناقضات كثيرة أمام قضية الوطن الكبرى، أذابتها صورة طالب الجامعة وهو يقوم على خدمة طاقم

المدفع بروح أخوية وشعور وطني صادق، في الوقت الذي كانت هذه الخدمات البسيطة تؤثر في الجنود وتدفع فيهم حماسًا وإيمانًا بشعبهم يحتاجون لأن يلمسوه بين الحين والآخر.. قال أحد الجنود:

ـ لقد مرت خمسة عشر يومًا سريعة متوالية.

وحين حل الوقت الذي كان على الطلبة أن يشدوا فيه رحالهم إلى مدنهم وقراهم.. كان فراقًا قاسيًا.. احتضن شباب الجامعة الجنود وقبلوهم في حرارة وشدوا على أيديهم وسالت فيه الدموع حارة.

وانطلقت العربات من جديد تخترق المواقع الأمامية على طول الجبهة متجهة إلى حيث سيرحلون حاملين تحيات المقاتلين وخطاباتهم لطمأنة الأهل والأصدقاء.

كم سيكون رائعًا حقًّا أن تتكرر تلك اللقاءات لخدمة الجبهة، فترسل القرى فلاحيها لخدمة الجبهة أسبوعين أو ثلاثة، وترسل المصانع بعض عمالها وفنييها أيضًا. إن ذلك سيرفع الروح المعنوية للجنود ولمن يشاركونهم حياة القتال على الجبهة بنفس الدرجة.



الثلاثاء ٢١ أكتوبر ١٩٦٩

توقفت العربة.. ألقى بجسده معي داخل صندوقها، ثم تكوم في أحد الأركان، تحركت العربة في سرعة شديدة فنحن نمر أمام منطقة يتمكن منها العدو، ويستطيع أن يصيبنا حتى بأسلحته الصغيرة.. تنهد زميلي وزفر بصوت عميق:

ـ يا رب.

ثم تكوم من جديد. عيناه متورمتان، يبدو عليهما التعب والإرهاق الشديدان، كنت أفكر فيما يمكن الحصول عليه من الأدوية اللازمة للجنود، كنت غارقًا في خواطر عديدة، لكن ذلك الجندي جذبني وشدني من خيالاتي. كانت العربة «تتكتك» ورائحة البنزين تملأ أنوفنا، هي والتراب المنبعث إثر حركتها. الجنود مرابطون خلف المدفعية للطيران، أحدهم يمسك المنظار ويدقق النظر باتجاه العدو.. باتجاه العدو.

التفت إلى الذي معي بصندوق العربة وقلت له:

ـ هل حدث لك شيء؟

قال وكأنه يخفي شيئًا:
ـ لا شيء.
قلت:
ـ لا تخبئ شيئًا في نفسك.. قد تموت الآن بطلقة واحدة.
فك يديه المعقودتين حول ركبتيه وقال:
ـ هل سمعت عن عبور الليلة الماضية؟
قلت:
ـ سمعت ذلك من الراديو وعرفت من الجرائد أيضًا.. قالت الدوائر الرسمية: «إن العملية نجحت تمامًا وعادت قواتنا سالمة ما عدا جنديين».
وأضفت:
ـ لكننا لا ندري هل استشهد الجنديان أم ماذا حدث لهما.
قال الجندي وقد احمرت عيناه وتساقطت منهما الدموع:
ـ لقد كنت في عملية عبور الليلة الماضية، كنا أكثر من مائة جندي تحت قيادة أحد الضباط، عبرنا تحت جنح الظلام محملين بالعبوات الناسفة والألغام والأسلحة الصغيرة مكلفين بمهمة استطلاعية عن العدو. كان الجو باردًا ومياه القناة أشد برودة، لكننا كنا نحس بدفء عجيب ونحن نضع أرجلنا على أرض سيناء.. مرت بنا ساعات عديدة ونحن نتجول في مواقع العدو الأمامية.. دون أن يعترضنا أحد، وزرعنا الألغام التي حملناها وحصلنا على المعلومات المطلوبة. قرر الضابط العودة إلى الضفة الغربية وأصدر

أمره بالانسحاب، وعدنا. كانت الدنيا أكثر ظلامًا من ذي قبل، لكننا كنا نرى أرض مصر وتعرف أرجلنا الطريق إلى كل شبر فيها.

مد يده ليفك أزرار السترة العسكرية القديمة التي يرتديها، وأخرج علبة صفيحية صدئة وأخذ يلف سيجارة. ثم أكمل حديثه. كنت منصتًا له، حتى إني لم أعر انتباهًا لأي شيء قد يحدث من حولنا... قال:

ـ قلت لك إن أرض الوطن غالية. كنا نمشي في حسرة ونحن عائدون تلفنا ظلمة الليل، وفجأة انطلقت الرصاصات من كمين للعدو، فانبطحنا جميعًا على الأرض وصوبنا أسلحتنا في اتجاه الطلقات. قال الضابط: «أسرعوا في العبور إلى الضفة الغربية». أصيب جندي ولم يستطع المشي، أخذ يزحف، وسمعنا صوت عربات مدرعة للعدو تقترب، يبدو أن الكمين أبلغ قوات العدو بوجودنا وكان يجب أن نعبر القناة إلى مواقعنا بسرعة فنسينا كل شيء، وفي أثناء عبورنا سمعنا زميلنا المصاب يزعق: «يا رب.. يا رب». عاد إليه أحد الجنود مسرعًا ليحمله.. حاصرتهم العربات المدرعة للعدو، ولا نعرف هل أسرَا أم أصبحا شهيدين.

قلت له:

ـ إن وراء كل خبر عسكري قصة بطولة واستشهاد.

قال:

ـ هل سيعرف الناس ذلك؟

قلت:

ـ لا بد سيأتي يوم يعرف فيه الشعب كل الحقائق.

توقفت العربة إثر صيحة عالية من أحد الجنود معترضًا طريقها، قال الجندي للسائق:

ـ كيف تتحرك وهناك عمليات الآن؟

وعندما سمعنا ذلك قفزنا من الصندوق إلى الأرض مسرعين إلى أي مخبأ أو ملجأ نحتمي فيه، فقد كانت طائرات العدو تغير على مواقعنا في تلك اللحظة، الطائرات تسقط حمولتها من المتفجرات وتفر هاربة من طلقات المدفعية المضادة، وبعد دقائق توقف صراخ الهواء، إذًا لقد فرت الطائرات. خرجت أنا وزميلي إلى الطريق، صراخ ينبعث من القرية القريبة منا، اقتربنا من الفلاحين وسألناهم عن الخبر، فقالوا:

ـ شظية قتلت إحدى الصبايا.

الجنود يضحكون في منطقة أخرى.. فقد سقطت إحدى القنابل بين تجمع من الكلاب التي كانت تجري مذعورة، فقتلت عددًا كبيرًا والباقي أصيب بجراح في المساء. كنت قد عدت من مهمتي وقد أنهكتني أحداث النهار والكيلومترات التي قطعتها العربة بطول القناة.

تمددت على البطانية وشددت بطانية أخرى فوق جسدي. أشعلت أحد أقراص الوقود الجافة بعد أن صنعت له علبة تخفي ضوءه ما عدا فتحة تبعث بالضوء إلى صفحات إحدى الجرائد القديمة، كان أحد الجنود قد أحضرها منذ يومين وهو عائد من إجازته، تصفحتها في دقيقة ثم ألقيتها جانبًا والغيظ يأكلني...

ما زلنا نضحك على أنفسنا، ما زالت مشكلة المشاكل هي كرة القدم. نظرت في ساعتي، كان موعد نشرة الأخبار المسائية قد اقترب، أدرت مفتاح الراديو، المذيع يقول:

ـ كبدنا العدو خسائر جسيمة...

أطفأت الراديو وشددت الغطاء حتى قمة رأسي واستسلمت للنوم.

الخميس ٦ نوفمبر ١٩٦٩

كانت هذه الليلة ساخنة تمامًا، على الرغم من أن اشتباكاتنا مع العدو في تلك الليلة قد توقفت، ولم يكن هناك إلا طلقات مضيئة يطلقها فوق جبهتنا بين الحين والآخر؛ ذلك لأنه يخشى عبور قواتنا إلى سيناء في ظلمة الليل. في هذه الليلة كنا نعرف أن مجموعة من رجالنا ستعبر القناة بعد منتصف الليل إلى موقع للعدو في سيناء، وعندما يجيئنا مثل ذلك النبأ فإننا بالطبع لا يغمض لنا جفن ولا يساورنا النوم، وكيف ننام وبعض رجالنا يستعدون لمقاتلة العدو في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل؟

مرقت عربتان يلفهما سواد الليل، كان ينبعث منهما صوت غناء وتصفيق، عرفنا أنهما محملتان بالرجال المكلفين بالعبور هذه الليلة.

قال زميلنا جندي الإشارة الراقد على حافة القناة:

ـ الرجال يعبرون بأسلحتهم الصغيرة، إنهم سعداء للغاية.

وانتظرنا أنباء أخرى لكن شيئًا لم يحدث، وما زالت الطلقات

المضيئة التي يطلقها العدو تضيء مواقعنا، وبناء على ذلك فقد قررت القوة التي عبرت أن تحتل مواقعها في سيناء حتى الصباح.

وفي الصباح يطمئن العدو أكثر من الليل؛ لأن الليل يشكل بالنسبة إليه شبحًا رهيبًا يتمثل في رجال قواتنا الذين يزحفون في الليل إلى مواقعه فيمزقون من تصل إليه أيديهم إربًا. قال جندي الاستطلاع الواقف بأعلى إحدى أشجار «الكازورينا»:

ـ دبابتان وعربة نصف مجنزرة محملة بالأفراد...

لم يكمل كلماته.. فقد انطلقت رصاصات الرجال الذين عبروا في الليل إلى سيناء، انهالت طلقات أسلحتهم كالصاعقة على العدو ومعداته، سمعنا صوت الطلقات، قال زميلنا الواقف بأعلى شجرة «الكازورينا»:

ـ الدبابتان والعربة دمرتا تمامًا.. القوة تنسحب.. يبدو أن اثنين من الرجال قد أصيبا، يحملهما زملاؤهما وهم يعودون.

قلنا:

ـ يجب أن نحيي الرجال وهم يمرون بعرباتهم على مواقعنا في طريق عودتهم.

وبعد لحظات عادت عربتان تحمل كل منهما زورقًا ومجموعة من الرجال يبدو عليهم الإرهاق، ملابسهم مبللة بمياه القناة.. يضحكون.. فقد انتهت المهمة بنجاح.

مرقت إثر العربتين عربة إسعاف تجري مسرعة... توقفت بالقرب منا.. اقتربنا.. قال الممرض ودموعه تتساقط:

ـ كانت فيهما الروح.. لقد استشهدا.

كان جسد كل منهما مسجى على النقالة... مبللًا بالمياه التي اختلطت بالدماء إثر جراح نافذة، كانت على وجه كل منهما ابتسامة حزينة، مات وهي مرسومة على شفتيه، مد الممرض يده وشد بطانية وغطى بهما البطلين، وانطلقت بهما السيارة إلى حيث المستقر الأخير.

عجيبة الحياة على خط النار، لكل دقيقة قصة، وفي كل وقت يمكن أن يحدث شيء جديد غير ما يتوقعه الإنسان، لذلك فإن الفلاحين الموجودين بالمنطقة قرروا استزراع الأرض أيضًا والتمسك بها بدلًا من الفرار، كلما أحسوا أن قراهم في خطر، وبين الحين والحين تجدهم يرسلون واحدًا منهم ليطمئن، فإذا عاد إليهم يحمل أخبارًا بأن المنطقة أصبحت هادئة ثانية فإنهم يعودون من جديد. ولو رأيت مثلي صرخات الجنود الشجاعة وهم يقفزون قفزًا خلف المدافع ويرفعون عنها شباك التمويه، وفوهات المدافع وهي تتحرك إلى أعلى، أو تنحني انحناءات خفيفة، كل واحد منا يعرف تمامًا أنها توجه إلى هدف من أهداف العدو الكثيفة وتنطلق منها الدانات تمزق الهواء وتهز الأرض؛ فسوف تعرف لماذا لم يعد الفلاحون يفرون خوفًا من الانفجارات كما كان يحدث من قبل، بل إنك سوف ترى فلاحًا يقود ثورين يجران محراثًا يحرث قطعة الأرض الباقية من حقله بعد أن احتلت مواقع مدفعيتنا أغلب مساحتها، وهو «يفرقع» بالسوط في يده ليحث الثورين على العمل في الوقت الذي تكيل

فيه المدفعية ضرباتها للعدو. بعض النساء يحصدن الزرع، والأطفال الصغار يعملون في صيد الأسماك من البحيرة، قد يتوقف البعض أحيانًا عن عمله، لا خوفًا، لكن لكي يطمئن عما إذا كانت ضرباتنا للعدو مؤثرة، أو ليعرف هل ضربات العدو لنا مؤثرة أيضًا. وعندما يطمئن إلى ذلك فإنه ينكب على عمله ثانية، وينطلق صوته بأغنيات عذبة مؤثرة.

الأربعاء ١٢ نوفمبر ١٩٦٩

مع الرصاص، وكلما اشتد القتال بيننا وبين العدو، ازداد تعلق الجنود وحبهم للزعيم الثوري الراحل «إرنستو جيفارا»... في بعض الملاجئ تجد الجنود يعلقون صورًا لـ«هوشي منه» ولـ«جيفارا» بلحيته الطليقة وشعر رأسه الكثيف والسيجار في طرف فمه، أو لياسر عرفات وعلى رأسه عقاله العربي، وفي أماكن أخرى يعلق بعضهم لافتات كتبت بخط اليد تحمل كلمات «جيفارا» التي تقول: «ليس هناك جنود سيئون إلا وفوقهم قادة أسوأ...»، وشعار آخر يعتز به الجنود ويعلقونه في أكثر من مكان: «الاشتراكي هو آخر من يأكل وآخر من ينام وأول من يموت».

وكلما أصبحت لغة الرصاص هي الحديث الأكثر فاعلية بيننا وبين العدو الإسرائيلي، برزت في الأفق صورة «جيفارا»... وعندما يدور الحديث عن نضاله يكون للحديث شجن وعذوبة، ووقع السحر على الجالسين وهم يتجاذبون أطرافه، في ظلام الليل الذي يخيم على الجبهة.

وكثيرون يفتنهم الحديث عن «جيفارا».

لقد رأيت أحد المحاربين يطلق لحيته مثله، وهو مفتول العضلات حسن البنية، يطلق عليه زملاؤه «جيفارا». و«جيفارا» المصري لا يترك

سلاحه من على كتفه، ينام وهو يحتضنه كقطعة غالية من جسده، وهو حاصل على ليسانس آداب، ولا يصوب سلاحه إلى العدو في الضفة الشرقية للقناة إلا ويصيب الهدف في أغلب الأحيان.

قال أحد الجنود:

ـ لو أن «جيفارا» ما زال حيًّا... هل كان سيأتي لمساعدتنا؟

قال جندي آخر:

ـ طبعًا، «جيفارا» كان يحارب العدوان الأمريكي في أي مكان.

ويتجمع البعض وتدور مناقشة، ومن وراء الملابس العسكرية تعرف أن هذا حاصل على ليسانس حقوق وهذا على بكالوريوس تجارة أو طب أو هندسة... و... و...

كنت أحمل كتابًا من مذكرات «جيفارا» في بوليفيا، وكان كل من يراه معي من زملائي المقاتلين يتعلق به ويريد أن يقرأه، حتى أصبحت مشكلة كان حلها أن نقرأه حسب أقدمية الطلب. قال لي واحد منهم:

ـ إن كتابات «جيفارا» وأفكاره مثل الرصاص الذي نطلقه على العدو.. إنها تدمره أيضًا.

أليست تلك الظاهرة تحية رائعة يقدمها جنودنا على خط النار للثائر العظيم «إرنستو تشي جيفارا» في الذكرى الثانية لاستشهاده؟

الثلاثاء ١٦ ديسمبر ١٩٦٩

بالأمس أسقطت طائراتنا المقاتلة طائرة «فانتوم» للعدو إثر اشتباك جوي دام أكثر من نصف ساعة في سماء الجبهة. كانت الطائرات تلاحق بعضها بعضًا وتطلق الصواريخ ثم تجري في سرعة جنونية، وأخيرًا سقطت إحدى طائرات العدو في كتلة من الدخان كونت عمودًا سقط من السماء حتى التصق بالأرض، إذًا فقد تحطمت أسطورة «الفانتوم» وجبروته، وقد زادت تلك المعركة من ثقة جنودنا بأنفسهم وبقدرتهم على تدمير أحدث معدات العدو.

في صباح اليوم اخترق مجالنا الجوي عدد كبير من طائرات العدو في تشكيلات محددة لأهداف محددة أيضًا، وفي ثوان قذفت بحمولتها من المتفجرات.. اهتزت الأرض بعنف لتنخلع قطع هائلة منها وتتناثر في الفضاء شظايا من الطين. جرى كل منا يضع الخوذة على رأسه، ترك أحد الجنود فطوره وجرى الآخر وقد ترك نصف ذقنه دون أن يكمل حلاقتها، حملتُ حقيبة الإسعاف على ظهري وجريت إلى أقرب حفرة، فمن المتوقع أن تكون هناك خسائر في

الأرواح. عندما عادت الطائرات من جديد، كان جنود المدفعية المضادة للطائرات الرابضون خلف المدفعية الثقيلة لحمايتها قد فتحوا النيران الكثيفة حتى بدت السماء وكأنها في رائعة النهار مليئة بالنجوم البيضاء اللامعة.. طائرات العدو ترتفع إلى أعلى متجنبة طلقات مدفعيتنا، تحلق من جديد ثم تنقض بسرعة فائقة على الأرض لتسقط حمولتها الضخمة وتعود ثانية وثالثة، وهكذا تحولت المنطقة إلى ظلام كثيف. الدخان يملأ المكان تمامًا والصرخات تعلو هنا وهناك، عربة الماء تتوقف في الطريق ويقفز السائق في إحدى الحفر خوفًا من الانفجارات. موجة أخرى من الطائرات تعود، جنود المدفعية المضادة يوجهون مدفعيتهم نحو الطائرات المغيرة، لكن الطائرات تُسقط بوحشية كميات ضخمة من المتفجرات وتفر هاربة.. بدأ صوت الطلقات المضادة يقل ويقل، وترتب على ذلك أن النجوم البيضاء اللامعة كانت تقل في كثافتها هي الأخرى، وكان الغبار والدخان كثيفين لدرجة أنهما كانا يحجبان الرؤية لمدة طويلة.

توقعنا أن سرايا المدفعية المضادة للطيران قد حدث لها شيء ما، وإلا فلماذا توقفت عن إطلاق مدفعيتها ضد الطائرات المغيرة. توجهت مع بعض أفراد كتيبتنا لتقديم المساعدة لأفراد سرية المدفعية المضادة للطائرات والتي من مهمتها الدفاع عن كتيبتنا من الطائرات المغيرة المعادية.

كانت رائحة البارود خانقة، وبرغم ذلك كان يجب الإسراع في مساندة وإنقاذ الأفراد المصابين قبل أن يعود الطيران الإسرائيلي من جديد، وقبل الموقع بمسافة قصيرة رقدنا على الأرض حتى

لا يرانا طيران العدو فيطلق علينا مدافعه «الفيكرز»، وظللنا نزحف حتى توسطنا الموقع. كان الموقع قد دمر تمامًا ما عدا مدفعًا واحدًا، خمسة مدافع أخرى بأفرادها دكتها صواريخ الطائرات فتمزقت أشلاء الجنود مع المدافع، وتحول الموقع إلى حفر عميقة غائرة في عمق الأرض. كان قائد الطاقم قد بترت ذراعه اليمنى وقد أصيبت كتفه اليسرى بشظية أحدثت فيه جرحًا عميقًا، وكان يبدو على وجوه الأفراد وقد غطاها التراب والدخان الذهول لما حدث لموقعهم.

أخيرًا قرر الجنود أن ينسحبوا من الموقع، فقد دمرته طائرات العدو ولم يعد مجديًا العمل منه، وتحامل الجنود في مساندة بعضهم بعضًا وقد علق كل منهم سلاحه في كتفه، إلا قائد المدفع فقد رفض أن يغادر الموقع.

طلبنا إليه في إلحاح خوفًا على جراحه التي تنزف بغزارة، لكنه رفض، وعندما طلبت إليه أن أضمد جراحه رفض أيضًا وقال لي:

ـ لا داعي فقد بترت ذراعي.. ضمد جراح الآخرين.

أراد أن يقنعني بأنه يتصرف بحكمة تامة، فقال:

ـ ماذا سيفعلون بي أكثر من ذلك.. وما فائدة الحياة بلا ذراعين؟

كانت عيناه محمرتين ينطلق الشرر منهما، وقد غطاه التراب والدخان الأسود، وعندما اقترب صوت الطائرات المغيرة تركناه لنأخذ الجرحى الآخرين إلى مكان بعيد أكثر أمنًا، وفي هذه اللحظة رقد هو على ظهره وثبت أطراف المدفع بقدميه، وعندما حومت الطائرات المعادية حول الموقع وتأكدت من أنه قد دمر تمامًا أقلعت من جديد بحثًا عن موقع آخر، وفي أثناء اندفاعها بعيدًا لحقت بإحداها

طلقات متواصلة من مدفع واحد كانت فوهته تطل من بين الدمار، وخرج من إحدى أجنحة الطائرة «الفانتوم» شريط من الدخان وجرت مسرعة لتسقط في سيناء.

عادت طائرات السرب في جنون لتلقي بكل حمولتها على الموقع المدمر، وفي هذه المرة اختفت النجوم البيضاء اللامعة من السماء، وتوقف المدفع عن الطلقات، وعدنا ثانية لنقنع الجندي بالرحيل عن الموقع.. اخترقنا دخان البارود الكثيف والتراب العالق فوق الموقع إثر الانفجارات، وبصعوبة لمحنا جثته وقد تمزقت أشلاء اختلطت مع حطام مدفعه، فأهلنا عليهما التراب وغرسنا فوقها أحد أعواد النخيل الخضراء. وبعد أن فرغنا من مهمتنا، تطلعنا إلى سيناء لنجد أن عمودًا من الدخان يتصاعد إلى السماء. قال رقيب أول الموقع وأنا أضمد له جراحه:

ـ إنه أسقط طائرة إسرائيلية.. لقد انتقم لنفسه.



الجمعة ١٩ ديسمبر ١٩٦٩

بالرغم من أن القمر كان قد استكمل استدارته، وبالرغم من أن أشعته كانت تلون كل ما يحيط بنا في المنطقة باللون الفضي، إلا أن ذلك لم يحرك مشاعرنا في شيء مثلما تتحرك مشاعر الكُتاب والفنانين والشعراء.

فمع ضوء القمر عرفنا أن طيران العدو سوف يأتي ليلقي حمولته من «النابالم» على مواقعنا في الجبهة، وعندما يذهب القمر تذهب طائرات العدو، ومثل الليالي السابقة كنا نستعد لمقاومة الطائرات المغيرة علينا في هذه الليلة، لكن ساعات الانتظار والتوجس واللون الفضي للأشياء، وأطلال القرية التي تحتلها كتيبتنا، وحفيف أوراق النخيل، ونباح الكلاب بين الحين والآخر، كانت جميعها تملأ قلوبنا بالشجن والوحشة. كان الخندق ضيقًا، وكنا أكثر من عشرة جنود نتكوم فيه ملتصقين بعضنا ببعض، حتى نحمي أنفسنا من البرد الزاحف علينا من سيناء ومن البحيرات الممتدة خلف مواقعنا العسكرية.

قال زميلي وهو يحدثني من تحت البطانية:

ـ هل تسمع؟ أصوات معدات للعدو تتحرك في الضفة الشرقية للقناة.

قلت:

ـ يبدو أنهم يتحركون بالدبابات في دوريات حراسة خوفًا من عبور قواتنا.

قال وكأنه يهمس خوفًا من أن يسمعنا أحد:

ـ إنهم يحصنون أنفسهم جيدًا.

ثم تكور تحت البطانية وقال:

ـ أقول لك صراحة.. العدو أصبح متمكنًا من جديد.. ألست تخشاه؟

اقشعر جسدي لتلك الكلمات، فإلى الآن لم نلتق بالعدو وجهًا لوجه حتى نستخدم أنفسنا أو تسليحنا الشخصي في قتاله.

انبعث من أحد أركان الخندق صوت شخير، لقد نام زميلنا النوبي وبندقيته تحت رأسه.. وفي تلك اللحظة انطلقت إحدى الطلقات الصغيرة من بندقية أحد جنود الكتيبة المجاورة لكتيبتنا ولحقتها صيحة عالية:

ـ حرس سلاح.. حرس سلاح.

وانتقلت الصيحات على ألسنة عديدة في أماكن متفرقة، ودق جرس التلفون الميداني، رفع جندي الإشارة السماعة إلى أذنيه، ثمْ وضعها في الحال وصاح هو الآخر بأعلى صوته:

ـ حرس سلاح.. حرس سلاح.

قمنا مسرعين من الخندق يلكز كل منا الآخر ويستحثه، لبس كل منا خوذته الحديدية وأحاط وسطه بحزام الذخيرة وأعد الطلقات في بندقيته أو رشاشه استعدادًا للقتال. همس الذي يتكلم في التلفون وهو يعد سلاحه أيضًا.

قال جندي الاستطلاع على القناة إن العدو يحاول العبور إلى الضفة الغربية بدباباته البرمائية.

ارتعشت أجسادنا.. كانت الطلقات الصغيرة تقطع وحشة الليل وصمته، واحتمال أن تجيء المصائب إلينا في أي دقيقة يخيم على خواطرنا جميعًا، ولكن بعد أن أخذ كل واحد منا وضع الاستعداد غمرت نفوسنا موجة من الشجاعة لا حد لها، وأطلق البعض طلقات متقطعة من أسلحتهم في الوقت الذي كان العدو يطلق فيه طلقات حمراء باتجاه خنادق المشاة الممتدة بطول القناة. لكن مدفعية ورشاشات جنود المشاة الرابضين على حافة القناة انطلقت مرة واحدة بلا انقطاع إلى الضفة الشرقية للقناة حيث يتربص العدو.

أمر الضابط قائد المجموعة ثلاثةً من الجنود اختارهم من أبناء الصعيد قائلًا إنهم «أكلوا من كبد الذئب»، وإنهم أكثر جرأة من غيرهم، أمرهم بالتقدم وعمل كمين على بعد نصف كيلومتر من مواقعنا، حتى إذا لمحوا أفراد العدو يتقدمون نحونا صوبوا عليهم النيران من الخلف.

وأطاع الجنود الثلاثة الأمر فورًا، ومشوا سريعًا لتبتلعهم الحشائش الكثيفة التي تنمو بغزارة حول المستنقعات والبحيرات العديدة في المنطقة التي نعسكر فيها.

نسينا برودة الليل تمامًا، وبالرغم من أن القمر كان في طريقه للاختفاء، إلا أن عيوننا كانت تخترق الظلام في حذر شديد بحثًا عن العدو المتسلل، وبين الحين والحين كنا نطلق من بنادقنا بعض الطلقات، فتمزق الصمت المخيف الذي يخيم على المنطقة. لم يكن هناك أي شيء نفكر فيه، ففي تلك اللحظات لم يكن للموت معنى ولا رائحة. قال زميلي وهو رابض خلف الرشاش:

ـ تصور، لقد عرفت الآن فقط كيف تولد الشجاعة.

قلت له:

ـ عندما تتاح لنا فرصة اللقاء بالعدو وجهًا لوجه سنجد أننا أكثر شجاعة منه، فنحن نقاتل على أرضنا والقضية قضيتنا.

قال:

ـ والسلاح يعطي للإنسان ثقة أكبر بنفسه.

قلت:

ـ خاصة عندما تنطلق الرصاصات في اللحظات التي يجب أن تنطلق فيها.

كان زميلي سعيدًا للغاية وكأنه اكتشف شيئًا جديدًا كان مختفيًا في داخله. كان الضابط قائد المجموعة يحمل سلاحه على كتفه وقد دس يديه في جيب معطفه بعد أن أحكم إغلاق كل أزراره، وأخذ في المرور على جنوده ليطمئن عليهم، وكان كل منهم يصيح بحماس:

ـ تمام يا فندم.

كنا في يقظة تامة.. وأخيرًا اتجه الضابط إلى أفراد الكمين المتقدم

إلى الأمام، وعندما اقترب من الجنود الثلاثة سمع أحدهم يهمس قائلًا لزميله:

ـ هس.. اسكت.

دقق النظر في الظلام فوجد الجنود الثلاثة وقد انبطحوا حول أحد الخنادق المهجورة وصوب كل منهم سلاحه نحو الخندق، رقد إلى جوار أحدهم وهمس في أذنه:

ـ ماذا في الأمر؟

قال الجندي للضابط:

ـ تمكنا من محاصرة بعض الأعداء.. وهم راقدون الآن في هذا الخندق خوفًا من بنادقنا.

قال الضابط متسائلًا:

ـ الآن؟

أجاب الجندي:

ـ منذ ساعة يا فندم.

تشكك الضابط في الأمر.. أخرج مصباحه الكهربائي من جيب معطفه ووجهه نحو الخندق ثم أضاءه مرة واحدة.. وكانت مفاجأة.. فقد كان هناك أحد الكلاب في خلوة مع أنثاه! أطلق الضابط بعض الطلقات من رشاشه، جرى الكلبان، وانطلق الجنود الثلاثة وهم يضحكون ويطلقون تعليقاتهم الساخرة.

كانت أشعة الصباح تكتسح أمامها جحافل الليل المظلمة، لا بد أن العدو قد خاب في مسعاه، وتراجع أمام رصاصاتنا. أخرج زميلي قطعة من القماش القديم كان يحتفظ بها في جيب معطفه، وراح يمسح

بها الرشاش ويزيل ما علق به من التراب وندى الليل، ثم أخذ يقبله في سعادة لا حدود لها.

وبعد قليل كانت الشمس قد اتخذت مكانها في السماء، وكان علينا أن نستقبل يومًا جديدًا.



الخميس ٢٢ يناير ١٩٧٠

تصاعدت العمليات العسكرية على طول الجبهة وتزايد نشاط العدو في ضرب مواقعنا في الكتيبة المجاورة لكتيبتنا.. كان الجنود في حالة قلق لصمت مدفعيتنا ولتركها الفرصة لمدفعية العدو وطيرانه يصولان ويجولان في المنطقة، ولم يتمالك أحد الجنود نفسه فذهب إلى ضابط الموقع في خندقه وقال له:

ـ لماذا لا نفتح النيران على العدو.. والهدف واضح جدًّا أمامنا؟

قال الضابط:

ـ لأنه ليس لدينا أوامر.

قال الجندي في غضب:

ـ يموت الناس كل يوم من طلقات العدو ولم تأتنا الأوامر بعد!

ثم غاب لحظة وعاد يحمل «مخلته» ومعداته، وقدمها للضابط وقال:

ـ هذه مهماتي فلتأخذوها وعندما تأتي الأوامر استدعوني.

وهمَّ بالانصراف.

ولم يكن سلوك هذا الجندي خطأ فحسب، بل كان أيضًا تصرفًا صبيانيًّا ضحكنا منه واعتبرناه طرفة تسرِّي عن النفس. ولكن جو الكتيبة، ويخيل إليَّ أن الجبهة كلها قد امتلأت بلغط وكلام كثير، كل من يذهب هنا أو هناك فإنه يأتي بأخبار عجيبة.. جواسيس تمكنت المخابرات من كشفهم.. سائق عربة الماء يقول إنه سمع من بعض الجنود أن جنديًّا أطلق تسع طلقات على صدر ضابط فقتله في الحال.. عربة إسعاف تحمل جنديًّا أُفرغ في بطنه ثلاثون طلقة من مدفعه الرشاش.

داخل الخنادق كان الحوار ثقيلًا؛ لأن علامات الاستفهام كانت دائمًا تبرز ضخمة. وأمام تساؤلاتنا عن الموقف وعن تزايد نشاط العدو الجوي، فوجئنا في يوم من الأيام بشيخ معمم، سمين مكتنز يرتدي الجبة والقفطان. كان ذلك عجيبًا، قابله ضابط الشؤون الإدارية.. قال الشيخ:

ـ جئت لأعظ الكتيبة.. ولأعلم الجنود الطريق إلى الله.

رحب الضابط، والتفت إلى الوجوم المرسوم على وجوهنا. ابتسم الشيخ ثم ضحك، ولم يضحك أحد منا.

عندما جاء الليل، وتكاثفت في السماء السحب الداكنة التي استطاعت أن تحجب القمر عنا، أصبح على جنود الحراسة الليلية أن يظلوا أكثر يقظة خوفًا من تسلل العدو إلى مواقعنا. داخل الخندق، كان الشيخ يجلس بيننا، وكان يجيئنا صوت جندي الحراسة وهو يصيح قائلًا:

ـ قف... من أنت؟

ـ ...

ـ كلمة السر؟!

ـ ...

ثم ما يلبث أن ينادي أهلًا يا سيد.. أو سعيد أو ربما أي جندي آخر يعرفه. وداخل الخندق كان لا بد من إشعال النار لعمل أكواب الشاي كالعادة لكن الشيخ التفت لي قائلًا:

ـ أريد الشاي ثقيلًا.

وعلى صليل الأكواب وطقطقة الخشب المحترق ورائحة الدخان، كنا نتحدث حول صعوبة الموقف والاحتمالات الممكنة، لكن الشيخ، وهو يرتشف كوب الشاي، قال وهو يمصمص شفتيه:

ـ جئت لأوثق الصلة بينكم وبين الله.

قلنا:

ـ كيف؟

قال:

ـ بالصلاة يا أولاد.. الصلاة في أوقاتها تجعل الله يرضى عنا جميعًا وتجعل النصر قريبًا بإذن الله.

قال واحد منا:

ـ لماذا لا نواجه العدو بضربات ساخنة.. ألا يرضى الله عنا عندئذ؟

قال الشيخ في ضيق ظاهر:

ـ يا بني، قم وصلِّ لله.. قم وصلِّ أولًا.

قال آخر:

ـ كيف يا سيدنا نترك المدافع ونتجمع للصلاة فتحصدنا إحدى قذائف العدو دفعة واحدة؟

قال الشيخ في غضب:

ـ تحصدكم قذائف العدو لأن الله غير راضٍ عنكم.

قفز جندي من بين الجالسين استشهد شقيقه في منطقة أخرى من الجبهة وصاح في وجه الشيخ:

ـ يا سيدنا.. هل ترى أن كل شيء يسير في طريقه الصحيح؟ لقد جئت لتؤنبنا وتحملنا تخاذل من هم أكبر منا.

ـ يا بني عيب.. فكر في نفسك فقط.

ـ لماذا لا تقل كلماتك هذه لأُولي الأمر منا.

ـ يا بني تكلم في حدود نفسك وأصلح أمرك وحدك.

ويبدو أن هذا الكلام لم يعجب زميلنا، فقام واقفًا وصاح بأعلى صوته:

ـ نحن لسنا جبناء يا سيدنا.. لتعلم أننا نقف للعدو بالمرصاد ولا يفصل بيننا وبينه سوى كيلومتر واحد فقط. نحن لا نخاف العدو، لكن قل لي: هل رأيت تحصيناتنا؟ هل رأيت الجندي الذي تطالبه بالرجوع إلى الله وكأن حالته البائسة كفر قد تسبب فيه لنفسه؟ إن هذا الجندي يقاتل عدوه وهو على أرض جرداء لا تحميه من الشظايا ولا من ضغط الهواء الناجم عن الانفجارات، وهو بالرغم من ذلك لم يجبن ولم يخف.

كانت المناقشة قد وصلت إلى مرحلة الغليان.

وكنا كلنا سعداء لكلام زميلنا.. لكن ذلك النقاش لم يستمر، فقد قطعته صيحات جنود الحراسة على القناة وحول مرابض الجنود تنادي بأعلى صوت:

ـ حرس سلاح... حرس سلاح...

تناول كل سلاحه وخوذته الحديدية.. وخرج من الخندق إلى حفر الدفاع وكلمات الشيخ تلاحقهم مرتعشة خائفة:

ـ لا تنسوا الدعاء.. لله.. لا تنسوا.

لم يكن هناك شيء، إلا أن جنود الحراسة كانوا قد اشتبهوا في حركة خفيفة بين الحشائش البرية التي تنمو بغزارة بالقرب من القناة، وعند الفجر ومع انسحاب سواد الليل أمام أشعة الشمس وهي تتأهب لتطل على الجبهة.. اتجهنا إلى الملجأ لننام قليلًا، وكان الشيخ ممددًا في أحد الأركان وقد خلع عمامته وعلا شخيره. قال زميل لنا وهو يسحب البطانية فوق جسده:

ـ إنه بذل مجهودًا كبيرًا.. له الله.

امتدت أشعة الشمس تلهب المنطقة، كان اليوم يوم جمعة، وكان كل ما يشغل بال الجنود هو تحصينات العدو القوية المواجهة لمواقعنا مباشرة، والتي لا تكف فيها حركة دباباته وعرباته المجنزرة منذ ساعات الليل الأولى وحتى الصباح.. لعله ينوي شيئًا ما.. وعلى كل فإن التلفون الميداني ينقل حركته خطوة بخطوة ولحظة بعد لحظة.

في هذا الوقت كان الشيخ يعد الجامع الذي بقي قائمًا وحده وسط أخربة القرية المهدمة لصلاة الجمعة، وعندما حان الموعد جاء إلينا بوجه عابس غاضب، وكنا نجلس وراء المدافع وفوهاتها متجهة نحو العدو في حالة الاستعداد القصوى. اقترب الشيخ من الضابط وقال له محتجًّا:

ـ ليس هناك جندي واحد ينوي الصلاة؟

قال الضابط:

ـ وماذا أفعل؟

وأشار إلى المدفعية وقال:

ـ إنك ترى الموقف يا سيدنا.

قال الشيخ:

ـ فلنصلِّ أولًا.

لكن إشارة إطلاق نيران المدفعية كانت قد وصلت عبر أسلاك التلفون الميداني.

وعلا الضجيج وضاع صوت الشيخ تمامًا، فقد كانت هناك حركة كحركة النحل في خلاياه، فالجنود وراء المدافع يتدافعون وهم يلقمونها القذائف ويتعثرون في الشيخ في ذهابهم ومجيئهم. فما كان منه إلا أن خلع جبته وعمامته وقذفها إلى الأرض وأخذ يحمل صناديق الذخيرة ويجري ليسلمها لجندي التعمير فتنطلق القذائف كالرعد وتملأ المكان بالدخان الكثيف.

وفي مواقع العدو تتحول قذائفنا إلى حرائق لاهبة، في تلك اللحظة

يولد أناس جدد تشحنهم الشجاعة شحنات قوية، ويخلق الموقف منهم بشرًا آخرين. وبين الدخان الكثيف والغبار المتطاير والمشبع برائحة البارود التقيته مسرعًا يحمل أحد صناديق الذخيرة والعرق يتصبب منه غزيرًا... قلت له:

ـ قواك الله يا سيدنا.

فرد عليَّ دون أن يتوقف:

ـ لعنة الله على الكافرين.. الله يقويكم.. الله يقويكم يا أولادي.

الأحد ٢٥ يناير ١٩٧٠

يوميًّا، عشرات الطائرات، مئات الغارات، آلاف القنابل، إننا هنا خلف المدافع وداخل الخنادق يصقلنا الخوف ويعلمنا الموت. إن وحشيتهم تشحذنا، تملأنا بالحقد عليهم. كنت أقول هذا لنفسي وجسدي المكدود متكور تحت البطانية، كنت أحاول النوم بعد يوم حافل بالموت والبطولة معًا، غطيت رأسي، استولت عليَّ صورة الأشلاء وبقع الدماء، نظرات الوداع في عيون الشهداء، هرب النوم مني، استحضرت صورة أمي وإخوتي، كنت أستنجد بهم، كدت أشعر بالنوم يلفني.

ولكن فجأة صاح جندي الحرس خارج الخندق:

ـ قف، من أنت؟

رد القادم:

ـ صديق.. القائد يطلب الطبيب.

وجدت نفسي واقفًا أبحث عن هذا الجندي في ظلام الليل، قلت له:

ـ أنا جاهز.

اصطحبني، تعثرنا في كتل الطين وحفر الصواريخ، وصلت إلى ملجأ القائد، تحسسنا الدرجات الخرسانية، نزلنا إليه، لمبة جاز صغيرة أمامه، تبينت ملامحه المكدودة وعينيه الحمراوين كالدم، وابتسامته المرهقة. قال مشيرًا إلى جندي يقف في خجل بجوار الحائط:

ـ أرجو أن تحل له مشكلته.

قلت للجندي:

ـ نشرب الشاي عندي ونتحدث.

تحسسنا الطريق، سقط زميلي في إحدى الحفر، تبللت ملابسه بالماء، لم يبال، شعرت بأنه بائس إلى أقصى حد، لم أستطع أن أؤجل الحديث معه. قلت له:

ـ أنا تحت أمرك.. هل أستطيع مساعدتك؟

ولكنه لم يُجب، وضعت يدي على كتفه، قلت له:

ـ تكلم، قد نموت الآن، لماذا يكتم الإنسان همومه في مكان مثل هذا؟

ولكنه لم يقتنع. سرنا في صمت، تعثر مرة أخرى، أمسكت به قبل أن يسقط، اعتدل وقرر أن يتكلم، قال في كلمات قصيرة إنه لم يستطع أن يمارس رجولته مع زوجته عندما كان في إجازته الميدانية، وبأنه في غاية الخجل من اهتمام القائد والجنود بأمره... ثم قال:

ـ وهل هذا وقته؟

هونت عليه الأمر، وقلت له: «إننا يجب أن نعرف السبب في ذلك أولًا». حصلتُ له على إجازة، وأرسلته إلى طبيب في قريتنا

ليجري له التحليلات اللازمة في المستشفى الذي يعمل فيه... عاد بعد يومين يحمل النتيجة، كل أعضائه سليمة، المسألة مجرد قلق لا أكثر.

كنا في هذه الأيام.. نتلقى الموت من كل جانب: من الأرض، ومن السماء.. ونحن لا نملك سوى أن نصمد ونقاتل حتى آخر طلقة وآخر رجل، كل يوم نودع أحد رفاقنا إلى قلب الأرض التي رواها بدمه، والقائد على الرغم من هذا يسألني عن حال زميلنا... أخبرته.. قال وكأنه يلقي أمرًا عسكريًّا:

ـ فلنجرب.

وأمر له بإجازة.. قال له زملاؤه وهو يقفز إلى العربة:

ـ إياك أن تخذلنا.

كانت المدفعية تدوي طول الوقت، وطلقات الأسلحة الصغيرة تظهر بين هذا الزئير وكأنها «قزقزة لب»... اللهب يشتعل في عديد من الأماكن وسُحب الدخان تغطي مساحات كبيرة... انحسرت إحدى هذه السحابات ذات مرة لتظهر عربة الإجازات عائدة وزميلنا ينزل منها مطأطئ الرأس، وفهمنا جميعًا أنه لا جديد. قال القائد:

ـ وما العمل؟

قال رقيب إن العفاريت هي التي سحرت له، وإن هناك في قريته شيخًا يستطيع فك سحرها. نظر إليَّ القائد، حاولت أن أتحدث، دق جرس التلفون الميداني:

ـ استعدوا...

الأيدي على الزناد.. الجنود خلف المدافع المحشوة بالقذائف.

ـ اضربوا...

قال جندي الاستطلاع:

ـ دمرنا موقعًا للعدو ودبابتين.

خرجت طائرات العدو تضربنا بوحشية بالغة، والتلفون يدق:

ـ اصمدوا...

طائرات العدو تكثف غاراتها.. تلقي علينا الموت بلا حساب... التراب والبارود يسدان حلوقنا، استشهد اثنان وجرح عدد كبير، والتلفون ما زال يدق:

ـ اصمدوا...

وصمدنا.. الجميع نسوا الحياة، ونسوا الموت أيضًا، لكن الموقف كان بالغ الكرب. وفجأة انشقت السماء عن طائرات «الميج» المصرية، ودارت معركة عظيمة فوق رؤوسنا.. سقطت طائرة للعدو.. وطائرة أخرى على أرضنا.. أصيبت ثالثة.. رقصنا.. لمحت زميلنا.. يقفز فرحًا.. وهو يلوح للطائرات المصرية بقبضة يده:

ـ الله ينصركم.. الله ينصركم...

استمرت المعركة.. طائرات العدو تهرب، طائراتنا تمرق وراءها ثم تحوم عائدة، مدفعيتنا تضرب بعنف أشد، يسدل الظلام أستاره على الجبهة، يتوقف القصف من الجانبين، نسهر لنعتني بالجرحى وندفن الشهداء ونتحدث عما لاقاه الإسرائيليون في هذا اليوم، لقد رجحت كفتنا وحققنا تفوقًا خارقًا وأثبتنا رجولة فذة، نسينا مشكلة زميلنا ونسي هو أيضًا مشكلته.

ولكن بعد أيام قليلة عادت عربة الإجازات لتفرغ حمولتها من

الجنود الذين كانوا في إجازتهم الميدانية، كان من بينهم زميلنا، كانت في يده لفافة، هرع إليه الجنود كأنما تذكروه فجأة. يعطيهم اللفافة، يفتحونها ويتخاطفون الفطائر الثلاث كالطيور الجارحة وهو ينظر إليهم في سعادة.. الرقيب يبرر شرهه في التهام الفطير ويعلن أن الفضل له، فهو الذي طلب من الشيخ أن يفك السحر.. أحد الجنود يلوح في وجهه بكلتا يديه ويقول بفم مليء:

- أي سحر يا حضرة الرقيب؟ إنه الطيران المصري الذي فك سحرنا جميعًا.

أبلغ القائد.. حضر من ملجئه.. أخذ قطعة من الفطير وقضمها ومضغها بسعادة بالغة.. ثم التفت إلى زميلنا وقال له بوجه مشرق:

- إن زوجتك تحسن صنع الفطير.



الاثنين ٢ فبراير ١٩٧٠

منذ مدة بعيدة والقيادة تحذرنا من تسلل العدو إلى جبهتنا، فالعدو يخطط منذ فترة طويلة لعملية عسكرية يقتحم بها مواقعنا مستهدفًا بذلك الدعاية وتحطيم الروح المعنوية لجنودنا.. كنا نعيش في تلك الأيام في يقظة تامة خاصة في الليل... وكم من النكات والأشياء المضحكة قد حدثت.. ففي بعض الأحيان يسمع أحد الجنود صوت «خرفشة» بين الحشائش، فنستعد جميعًا ونحاصر مصدر الصوت، وبعد أن نضيق عليه الحصار يقفز كلب أو فأر، فنضحك ونتهكم على زميلنا. ولكن هذا لم يقلل من يقظتنا قَطُّ، وأيضًا لم يمنع حدوث بعض الأخطاء، ففي هذه الليلة صاح جندي الاستطلاع على شاطئ القناة:

ـ قف، من أنت؟

قال القادم:

ـ أنا الضابط «...» يا ابني... كله تمام؟

كان القادم يردد اسم الضابط المسؤول عن مراقبة المنطقة التي

تدافع عنها كتيبتنا.. وبسبب غفلة هذا الجندي لم يسأله عن كلمة السر واكتفى بأن القادم اسمه الضابط «فلان».

نزل القادم إلى الخندق وتظاهر بأنه يتفقد الموقع، ثم فاجأ الجندي وقتله بخنجره وقطع أسلاك التلفون وكرر المحاولة في الموقع المجاور.

صاح الجندي:

ـ قف، من أنت؟

ـ أنا الضابط «...» يا ابني.

ـ كلمة السر؟

ـ كلمة السر؟

تلعثم القادم قليلًا ثم قال:

ـ أقول لك أنا الضابط «...».

ـ لا أعرفك.. كلمة السر فقط هي التي أعرفها.

ولما لم يسمع الجندي أي إجابة انهال على القادم بطلقات متوالية من رشاشه، وفي ثوان كانت المواقع كلها قد اشتعلت.. كان هناك عدد غير قليل من أمثاله قد تسللوا.. وبعد أن استشهد أفراد الموقع الأول أصبح لدى العدو نقطة عبور... ودارت معركة رهيبة بالسلاح الأبيض والرشاشات.. وشعرنا أن هناك عددًا كبيرًا من القوارب تعبر القناة وأن الضفة الشرقية للقناة تعج بالمجنزرات، إذن فالعدو ينفذ خطته.

كان الموقف بالغ الحرج والصعوبة، فقد أصبح جنودنا على

القناة معزولين تمامًا عن المدفعية في المؤخرة بسبب قتل جندي الاستطلاع وتقطيع أسلاك التلفون.. كذلك أيضًا أصبحت المدفعية غير قادرة على القصف بدون توجيهات الاستطلاع.. العدو يطبق خطته التقليدية في الهجوم الكاسح.. أفراده يتزايدون في سرعة شديدة.. جنودنا يقاتلون بكل خلايا أجسادهم.. كان لا بد أن يحدث شيء قبل عبور المجنزرات التي أعدها العدو.. كان لا بد لمدفعيتنا أن تتدخل لتحسم القتال.. قائد كتيبتنا يأمر أحد ضباطه الشبان أن يحمل جهاز اللاسلكي ويقتحم القتال الدائر على شاطئ القناة ويقول له:

ـ تعطيني إشارة الضرب أو تموت هناك.

الضابط يشق طريقه مسرعًا بين الرصاص المتهاطل والشظايا المتطايرة، ثم يتحصن في أحد الخنادق على شاطئ القناة ويبدأ في إرسال إشاراته.. المدافع تزأر وتهز الليل هزًّا وتغرق قوارب العدو في القناة، ثم تشعل النار في مجنزرات العدو التي كانت متربصة خلف الساتر الرملي على الضفة الشرقية.. الإسرائيليون يلقون بأنفسهم في مياه القناة، يحاولون العودة إلى مواقعهم، تبتلع القناة كثيرًا منهم، جنودنا يقومون بعمليات تطهير سريعة.. يسطع الفجر ونتفقد شهداءنا... إنهم أربعة، جندي الاستطلاع واثنان آخران وجندي رابع، كان في صدره خنجر، ولكنه استشهد وهو قابض على رقبة جندي إسرائيلي حتى الموت، فصلناهما وأرحناه بجوار زملائه الثلاثة، وكان النهار قد بدأ يطل على الجبهة. العدو انسحب تمامًا

ولم يعد له أثر، توقفت المدفعية عن القصف، الشمس تغمر الأشياء بنورها الساطع، قوارب ممزقة في القناة، آليات العدو يتصاعد منها الدخان على الضفة الأخرى للقناة.

جاءت حراسة النهار تستلم منا الموقع.. سلمناه لهم ورؤوسنا مرفوعة، شدوا على أيدينا وقالوا:

ـ صباح الخير يا رجال.

الجمعة ٦ فبراير ١٩٧٠

أكتب هذه اليومية في قريتي.

لقد عدت توًّا من الجبهة لأقضي إجازتي الميدانية بين أهلي وأصدقائي كعادتي منذ أن جندت.. وكان فرحي بلقائهم يزداد كلما اقتربت المسافة وأنا في الطريق إليهم.. ولكن في هذه المرة قد جئت إليهم بقلب مثقل بالهم والحزن.. فما زالت دماء ذلك الجندي تخضب ملابسي العسكرية، وما زالت ملامحه الريفية البائسة تلح على مخيلتي برغم الجرح النازف في رأسه. لقد ضمدت كثيرًا من الجرحى وحملت عديدًا من الشهداء إلى مثواهم الأخير، لكن لم أتأثر بهذا القدر العميق إلا هذه المرة.

كنت أجلس إلى جوار نافذة القطار، فهي عادتي التي أصر عليها كلما حصلت على إجازتي الميدانية.. أحب الجلوس إلى النافذة حتى أمتع بصري بخضرة الريف وحتى يأنس قلبي بمناظر القرى الآمنة وهي تتلاصق مع سرعة القطار، فأين منها تلك القرى البائسة على خط النار وما حدث فيها من دمار وحشي، على يد عدونا الذي لا يعرف الرحمة.. وفي هذه المرة كنت مشتتًا في أفكاري، تُذكرني أشياء

كثيرة تمر أمام نافذة القطار المسرع بما يدور في حياتنا من أحداث فتختلط معها مشاعري، وأحيانًا كثيرة تسقط دموعي دون أن أدري. وفجأة سقطت قطرة من الدم على يدي التي كنت متكئًا بها على نافذة القطار.. ولم ألق بالًا للأمر أول مرة، فمسحتها وواصلت استغراقي واستمتاعي بخواطري التي تتداعى بسرعة تنافس سرعة القطار.. ولكن سقوط قطرة ثانية حفزني لأن أحاول استطلاع مصدرها، فأخرجت رأسي من النافذة ونظرت إلى أعلى فوجدت خيطًا من الدماء ينساب من فوق سقف عربة القطار التي تطل من فوقها أطراف حذاء عسكري، وأدركت الأمر بسرعة، فهناك جندي مصاب فوق القطار. أصابني الذعر، وصحت بمن حولي أن يطلبوا من المسؤولين عن القطار إيقافه بأسرع ما يمكن لاستجلاء الأمر. وحضر المسؤولون بسرعة وعاينوا الدماء والحذاء العسكري المطل من فوق عربة القطار، ولكنهم أصروا أنه من المستحيل إيقاف القطار إلا في أقرب محطة وإلا حدثت كارثة للقطار القادم على نفس الخط علاوة على قطارنا أيضًا.

وأجمع الناس على أن الجندي الموجود على سقف العربة قد ارتطم رأسه بسقف إحدى القناطر التي يمر تحتها القطار، وأنه غالبًا قد مات. وظل اللغط على أشده حتى توقف القطار، فقلت للمسؤولين عن القطار إنني طبيب، وطلبت منهم أن يسمحوا لي بالصعود معهم إلى سقف العربة لعلني أستطيع عمل شيء إذا ما كان هناك أمل.

كان رأس الجندي مهشمًا إثر اصطدام قوي مع جسم صلب.. وكان قد فارق الحياة تمامًا، ولم يكن هناك على سطح القطار كله غيره.. كانت ملابسه كلها غارقة في الدماء.. حملناه إلى المحطة

وسلمناه إلى الشرطة العسكرية التي بدأت في جرد محتويات ملابسه، في محاولة للتعرف على شخصيته، وأخذ أحد جنود الشرطة العسكرية يسجل هذه المحتويات: منديل، علبة سجائر بها ثلاث سجائر، سبعة عشر قرشًا، بطاقة عسكرية.

بطاقة عسكرية رقم: ...
كتيبة رقم: ...
الاسم: ...
بطاقة شخصية رقم: ...
المهنة: فلاح.
محتويات أخرى: منديل، علبة سجائر بها ثلاث سجائر، سبعة عشر قرشًا، ختم، برقية.

وعندما شاهدت البرقية في يد جندي الشرطة العسكرية طلبت منه أن يطلعني عليها، وقرأت: «احضر حالًا... والدك تُوفِّي».

مددت يدي بالورقة للجندي وذهبت ألقي نظرة على ذلك الغارق في دمائه، وصفر القطار، وعدت إلى مقعدي أسمع حديث الناس عما حدث ولا أجد معنى لأي كلمة تقال، ولم أعد أرى برغم عيني المفتوحتين لا الأشجار ولا البيوت التي كانت تطل عليها نافذة القطار.. فقد كان حجم الحزن أكبر من أي شيء، وتركز في خاطري سؤال... أترى هذا الوطن القاسي على أبنائه المخلصين.. أيمكن لهذا الوطن أن ينهض؟ إن الأمر كله مرهون بقليل من الرحمة يمكن أن تنقذ عالمًا بأكمله.

الأحد ١٥ فبراير ١٩٧٠

ـ فيتنام الصغرى.. كيف الحال عندكم؟

وتكون إجابتنا، إننا نقاتل في الليل والنهار، نحن نعيش حياة قتالية حقيقية، فالمنطقة بين القنطرة و«الكاب» ملتهبة تعيش على دوي الانفجارات، وتلون سماءها سحب الدخان السوداء. الحشائش التي تنمو بغزارة في المنطقة أطرافها دائمًا محترقة بفعل قنابل «النابالم»، بحيرات كثيرة صنعتها قنابل الطائرات، أصبحت عادة يلحظها الجميع. عندما تتحرك إحدى عربات الجيب في وضح النهار، فإنك تجد قائدها وقد فتح باب العربة وتعلقت عيناه بالفضاء المحيط، حتى إذا لمح إحدى الطائرات المعادية اتجه بالعربة داخل الحشائش مختفيًا، حتى الجنود يحذرون المشي في تجمعات كبيرة ويفهمون كيف يثبت الجندي في مكانه دون حركة أو يختفي تحت إحدى الأشجار حتى تنتهي غارة الطيران المعادي.

برغم ذلك فقد عبرت إحدى وحداتنا المقاتلة قناة السويس إلى الضفة الشرقية في منتصف الليل.. اشرأبت فوهات المدافع

واشرأبت معها رؤوس المقاتلين تتربص بالعدو حتى الصباح، كنا في الضفة الغربية للقناة على أتم استعداد للاشتباك بالمدفعية لحماية زملائنا الذين عبروا القناة، وفجأة أطلقت قواتنا في سيناء القذائف الصاروخية وطلقات المدافع الرشاشة والبنادق الآلية كسيل غير منقطع، الدم يغلي في عروقنا، نكاد نطير ونقفز في الفضاء لنلحق بهم... رقعة اللهيب تزداد والدخان الكثيف يتصاعد بكثرة.. أسلاك التلفون الميداني لا تكف عن الصراخ.. دمرت دبابة.. اثنتان.. خمس دبابات تم تدميرها بأفرادها، العدو يطلب النجدة، طائرات «الميراج» تصل بعد ثوان وتصب على زملائنا الذين عبروا جحيمًا من النيران بطلقات «الفيكرز»، وكانت مفاجأة حين عادت القوة كاملة من بين اللهيب دون أن يصاب أحد منهم بجراح. بالأحضان والقبلات تقابلنا، وقالوا نريد أن نأكل. أحضرنا لهم الخبز والجبن والشاي، وجلسنا نتحدث عن تلك اللحظات الرائعة في حياة المقاتل وأسطورة الجندي الإسرائيلي الذي لا يقهر، وفجأة تساقطت قذائف «الهاون» الإسرائيلية بالقرب منا. سقط البعض ميتًا وأصيب البعض الآخر. كنت وحدي الذي يعرف الإسعافات، جريت حاملًا النقالات وحقيبة الإسعاف، قلبت الجثث الملقاة، ضمدت جراح البعض، كان هناك جندي ذو إصابات بالغة، لم أستطع تضميد جراحه لأنه قد أصيب بتهتك في الحوض وكسر عميق في فخذه أيضًا، وعندما هممنا بالتحرك بالعربة إلى المستشفى الميداني، كان بعض الجنود يتجمعون حول أحد النقباء وقد راح جسده يرتعش بشدة، اصطحبناه معنا.

الخميس ١٨ يونيو ١٩٧٠

لم نجد صعوبة في إخراج جثتي الشهيدين اللذين دفنا تحت قنابل الطائرات المعادية، الجثتان ممزقتان لكننا لففنا كل جثة داخل بطانية ما عدا الحذاء؛ فقد كان يطل من فتحة البطانية في استرخاء تام، وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت الدماء الحمراء تقتحم لون البطانية الرمادي وتصبغ بحمرتها عيون الزملاء. شعرت بالحزن يطل ثقيلًا من كل المآقي، تسمرنا حول الجسدين الممددين على الأرض دون أن يقدر أحد منا أن يحرك لسانه بكلمة واحدة، أو أن يرفع بصره عنهما. كانا صديقين، عندما كنا نحب أن نلهو، كنا نثير معهما الشغب ونضحك كثيرًا من تعليقاتهما ونكاتهما التي لا تنفد، بعد كل اشتباك كانا يحولان كل ما حدث إلى فكاهات لاذعة، كانت لديهما قدرة غريبة على ذلك، بل إنه كان يكفي أن نرى أحدهما قادمًا من بعيد حتى نغرق في الضحك، وفي الليل كان يكفي أن نسمع صوتيهما حتى يحدث نفس الشيء. من يراهما كان يجزم بأنهما ولدا معًا على الرغم من أن أحدهما كان مسلمًا والآخر مسيحيًّا، وعلى الرغم من أنهما لم يلتقيا إلا في الخندق ومنذ عام واحد، لم نكن

نعرف عن حياتهما كثيرًا سوى أن أحدهما كان يحمل دبلوم تجارة والآخر دبلوم معلمين، وكان كل منهما يعول أسرته بعد موت والده، وربما كان هذا هو الذي يوحد بينهما، وعلى الرغم من أن حياتهما كانت صعبة إلا أنهما كانا أكثرنا مرحًا وكأنهما لم يعرفا الألم قط.

نظرت إلى قطع الطين الكبيرة الملتصقة بحذاءيهما البارزين من تحت البطانية.. تذكرت ثباتهما وراء المدفع، كانا قد ألقماه قذيفة، وعندما طلب منهما قائد الموقع أن يختفيا في الخندق قبل أن تصل الطائرات.. أصرَّا على أن تنطلق القذيفة أولًا، ولكن الطائرات المعادية كانت أسرع.. قال أحدنا وكأنه يعزينا:

ـ كانا بطلين.. على الأقل لم يفرَّا مثلما فر جندي التعمير في الكتيبة المجاورة.

لم تجد هذه الكلمات شيئًا، وكأن العالم قد توقف، الكل غارق في الحزن، حتى الدموع تجمدت، وفجأة استدار أحد الجنود وقذف كلبًا بحجر، وكان الكلب ينبش في أكوام التراب والطين الضخمة التي صنعتها القنابل. عاد الكلب مرة ثانية ليتشمم نفس المكان، تعجب الجندي وقذفه بحجر آخر. قلت في نفسي لعل حاسة الشم القوية لدى الكلاب تنبئ هذا الكلب عن وجود شيء ما تحت أكوام الطين هذه، أمرت أحد الجنود أن يكشف عنه في نفس الموضع، وأخذت أرقبه وهو يقذف بالطين عاليًا إلى أن اصطدم جاروفه بجسم حديدي اتضح لنا فيما بعد أنه خوذة جندي آخر مدفون تحت التراب، ولكن يبدو أن ذلك قد حدث منذ ثلاثة أسابيع على الأقل، فحالة الجثة تؤكد ذلك. لا أحد يستطيع التعرف عليه، فليست هناك بعد هذه المدة ملامح،

مددت يدي في جيب سترته وأخرجت بطاقته العسكرية وقرأت اسمه بصوت عال لعل أحدًا يعرفه.. وفجأة صاح أحد زملائنا:

ـ إنه من الكتيبة المجاورة لنا.. إنه جندي التعمير!

وفي ملفات الأوراق العسكرية، كان قد تم التبليغ عن هرب هذا الجندي من الميدان، وكنا نحن نسخر من زملائه ونعايرهم به إذا ما أخطأوا أهدافهم عند الاشتباكات. كانت في يده قبضة من طين الوطن، وبجوار اليد الأخرى قذيفة فارغة. أخيرًا انفك أسر دموعنا وسالت تجرف الأحزان من قلوبنا، رفع كل منا رأسه، وكان الإوز البري يحلق ـ برغم كل شيء ـ أبيض ناصعًا في عتمة الغسق كقلوب الجنود في تلك اللحظة، فقد أضاءتها قصة زميلنا جندي التعمير، قضت على ما علق بها، وهتف بداخلي هاتف: «يبدو أننا أكبر مما نظن».

تم إعداد العربة.. تمدد الشهداء الثلاثة جنبًا إلى جنب، وفي الليل تحركنا إلى مقابر الشهداء لتتم إجراءات الدفن في الظلام حتى لا تفاجئنا طائرات العدو. في دقائق انتهى كل شيء، وقبل أن نقفل عائدين تحسسنا شجرة في سواد الليل أخذنا منها ثلاثة أغصان خضراء ووضعناها على قبر كل منهم وأدينا لهم التحية العسكرية.



الأربعاء ٥ أغسطس ١٩٧٠

في الجبهة يولد الإنسان الجديد، يولد بين اللهب وأمام رصاص البنادق الآلية، وشظايا الدانات والقنابل، وتحت طائرات العدو المغيرة، هنا يجب على الإنسان أن يتخذ موقفًا واضحًا محددًا، إما أن يخاف ويجبن، وإما أن يقف في شموخ، دون أن تهتز منه شعرة واحدة. وفي الجبهة شاهدت ميلاده مع الاشتباكات اليومية بيننا وبين العدو، هذا الإنسان الجديد الذي علمه الرصاص كيف يكون الوطن هو حبه الأكبر، وكيف يحمل في قلبه مشاكله وهمومه، وما هو الحق، وكيف يكون الواجب.

إن اللحظة التي يعيشها الإنسان بين اللهب وتحت الخطر هي التي تخلقه من جديد، هي التي تجعله يلقي بحياته الرتيبة المرهفة لينام في الخنادق الترابية ويجوب ظلمة الليل الحالكة، ويعوِّد أذنيه على دوي المدفعية وهدير الدبابات. وبرغم الظلمة فإنه هنا يرى مصر أكثر من الجالسين في مقاهيها، هذا الصمت أحيانًا ثم ضجيج الاشتباكات أحيانًا أخرى، الطلقات المضيئة في الليل، السلاح والذخيرة والخوذة

الحديدية.. ماذا بعد؟ إنها لحظة رائعة تلك التي يحس بها الجندي وسلاحه على كتفه وعيونه تخترق الليل، إنه حارس شجاع يحمل مصر كلها في قلبه ويحس بها مع كل خفقة.

إن هذه الحياة على الجبهة هي التي ألهمت قائد المدفع الذي بترت صواريخ الطائرات المعادية ذراعيه، فثبت قدميه على المدفع وأسقط إحداها. إنني أذكره جيدًا، وأذكر أيضًا ذلك الجندي الذي كان يحمي مؤخرة العبور، ورفض أن ينجو بحياته بعد أن اكتشف العدو خط انسحاب زملائه، وأصر على حماية ظهورهم، واستشهد في قاع القناة.

ماذا بعد أن ينزف الدم منا.. علينا أن نواصل القتال.. هل يموت الإنسان مرتين؟ إنها مرة واحدة وميتة واحدة، فمع تصاعد الموقف يتزايد الرجال الشجعان وتشتد حماستهم للقتال. هذه المجموعة من الرجال التي عبرت القناة إلى الضفة الشرقية كانوا يقبلون الأرض، ظلوا أكثر من خمس ساعات يتحرشون بالعدو حتى فوجئوا بطابور من المدرعات المعادية. وعلى الرغم من أن أسلحتهم وذخيرتهم كانت بسيطة لم يترددوا، اشتبكوا مع تلك المدرعات ودمروا منها دبابتين وعربتين نصف جنزير وعربة جيب.. كانوا يصيحون:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

وبين النار المشتعلة كانت طائرات العدو تبحث عنهم، إلا أنهم عادوا جميعًا بلا جريح واحد وهم يقبلون بعضهم بعضًا، ويقولون:

ـ لو كانت هناك ذخيرة أخرى.. لأبدنا طابور المدرعات عن آخره.

هنا وراء كل خبر عسكري قصة لإنسان ولد من جديد على الجبهة،

إنسان يعرف كيف يحب وطنه، ويعرف معنى الواجب.. ويدرك اللحظة التي يقرر فيها شيئًا للوطن، ولذلك فإنساننا الجديد لا يهمه الرصاص ولا ما تردده إذاعات العدو.

إن المقاتل على الجبهة يثق بأن حل مشاكل الوطن الداخلية والصراع ضد الاستعمار هو بالمزيد من القتال.



الخميس ٢٢ أكتوبر ١٩٧٠

مرت الأيام مسرعة.. وكنت قد تعودت أن أقضي الوقت دون ملل، كما عودتني الأيام أن أحرص على زملائي في الميدان، وأن أحرص على الاتصال بعائلتي كلما حان الحين، وفي يوم كنت عائدًا للتو من إجازتي الميدانية، وقررت جريًا على عادتي أن أكتب لوالدي لأطمئنه:

الجبهة في ١٩ سبتمبر ١٩٧٠

والدي المحترم،

وصلت بسلام إلى الجبهة.. أرجو أن تطمئنوا.. أعرِّفكم أن إجازتي القادمة ستكون ابتداء من ١٤ أكتوبر ١٩٧٠ عشرة أيام كاملة، الجو هادئ كما يبدو، حالتي النفسية جيدة، ويساعدني على ذلك قراءة بعض الكتب التي أحملها معي. أرجو أن تفي بوعدك معي لحل مشاكل البيت، وأن تحضر لهم القمح المطلوب، وأن تحل مشاكل الصغار حتى أستريح.

ابنك

وفي يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠ كنت قد خرجت في إحدى العربات العسكرية لإحضار أدوية وتعليمات طبية للوحدة، وكان القدر لي بالمرصاد، ففي الليل ونحن نسير بعربتنا على الطريق الموازي للقناة فوجئنا بطائرات العدو تسقط قنابلها علينا، اصطدمت عربتنا بإحدى العربات التي كانت تفر مذعورة، وأصبت في عظامي بكسر أرقدني في صندوق العربة، دارت برأسي صور عديدة، كنت أمشي للموت، وكانت صورة أمي تجثم على صدري لا تفارقني، جاءت عربة الإسعاف لتنقلنا إلى مستشفى الإسماعيلية الميداني، وهناك أفقت بعد أن تحسست إصابتي وتأكدت أنها غير مميتة، ومن هناك كتبت رسائلي من جديد:

المستشفى الميداني بالإسماعيلية في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠

صديقي المقاتل،

طبعًا علمت أني قد أصبت في حادث العربة مساء ٢٥ سبتمبر مع من أصيبوا نتيجة غارات العدو الليلية، وكانت إصابتي بعض الجروح السطحية وكسر عظمة الحوض، ولذلك فقد تقرر نقلي إلى مستشفى القصاصين ومنها إلى القاهرة.

أخي، كان في العربة شنطة تطهير جماعية كنت قد استلمتها للوحدة، و«وابور» الجاز الخاص بي، ومجموعة من الكتب الخاصة بالإسعاف، أرجو أن تبحثوا عن هذه الأشياء وأن تحفظوها.

أخوك المقاتل

وبعد أن تماثلت للشفاء جاءتني تلك الرسالة القصيرة.

الجبهة في ٧ أكتوبر ١٩٧٠

صديقنا المقاتل،

تمنياتنا الطيبة لك بالشفاء، وصلتنا رسالتك، بحثنا عن حاجتك ومعداتك وحفظناها لك، أما المعدات الأخرى مثل الشاي والسكر والملح وظروف الخطابات وأمواس الحلاقة، فقد أخذناها للاستعمال، وإن شاء الله بعد خروجك من المستشفى سنعوضك عنها.

المقاتلون

كنت قد نُقلت إلى مستشفى الدمرداش للمزيد من الراحة.. وجاءني بعض الزملاء في أثناء إجازتهم الميدانية، وأبلغوني أن مهماتي قد فقدت.. فأرسلت هذا المكتوب:

مستشفى الدمرداش في ١١ أكتوبر ١٩٧٠

الأصدقاء الأعزاء،

نقلت إلى مستشفى الدمرداش للمزيد من الراحة، وصلني أحد الجنود من الوحدة وأخبرني أن البطاطين قد فقدت، هل هذا معقول؟ وأيضًا علمت أن «وابور» الجاز قد سرق هو الآخر، أهذه مكافأتي؟

شكرًا لكم.

زميلكم المقاتل

وكان الرد عجيبًا:

الجبهة في ١٥ أكتوبر ١٩٧٠

صديقنا المقاتل،

تمنياتنا لك بالشفاء العاجل،

مرسل لك هذا الخطاب حتى لا تسأل عن مرتبك هذا الشهر، فبعد حسابات عديدة كان الصافي لك هو «صفر» أبعثه إليك في هذا الخطاب، وذلك ليس بيدي، وربنا يعدلها.

عريف الماليات

كنت قد قررت بعد ذلك أن أكف عن الكتابة للوحدة، لكني كنت قد تماثلت للشفاء تمامًا، وبدأت رحلة العودة، حملت حقيبتي وركبت القطار الحربي إلى الجبهة، وجلست بالقرب من النافذة ثم ألقيت برأسي على حاجز الكرسي الخشبي العتيق، ومع ضربات عجلات القطار الرتيبة على شريط السكة الحديدية دارت في مخيلتي تلك الصورة ليلة أن وطئت قدماي أرض الجبهة لأول مرة، هل ستكون الجبهة قد تغيرت كثيرًا؟ كيف حال الأصدقاء والزملاء؟ من يا ترى قد أصيب، ومن يا ترى قد واراه التراب؟ وداخل حقيبتي كنت قد اطمأننت على أني قد حشوتها بالأوراق والخطابات الجديدة، وعلا الضجيج في عربة القطار حينما صاح بائع الكتب والرسائل معلنًا عن رسائل المحبين والأصدقاء، وسارعت الأيدي تطلب الرسائل، وغمرني الحنين وعصف الشوق بقلبي، ولكن القطار الحربي كان ينهب الطريق مسرعًا إلى الجبهة.

السبت ١٩ ديسمبر ١٩٧٠

في أول الأمر كنا نخجل من زملائنا المقاتلين في الجبهة عندما كانوا يسألوننا عن تسليحنا، كنا نقول لهم ونحن نعرف مسبقًا باستهزائهم:

ـ مدفعية ٢٥ رطل.

فقد كان هذا السلاح من مدفعية الحرب العالمية الثانية قديمًا، بدائيًّا، قصير المدى، صعب التشغيل، وهناك الآن أسلحة أكثر خطرًا وزئيرًا منه متفرقة على امتداد جبهتنا، وكنا نستطيع أن نميز صوت مدافعنا من أصوات المدافع العديدة الممتدة من ورائنا على طول خطوط القتال، وكان لا بد لكتيبتنا أن تأخذ مكانها بالقرب من القناة حتى يكون لمدافعها العتيقة المدى المؤثر في مواقع العدو الممتدة أمامنا.

ومرت الأيام، ورأينا أن كتيبتنا تحتل موقعًا من أهم المواقع الدفاعية في منطقتنا، وأن علينا بمدافعنا القديمة أن نكون رجالًا وأن ننفذ تعليمات القيادة بأن نصمد في أماكننا مهما كانت ظروف الاشتباك مع العدو، فقد كانت القيادة تعلم بالطبع مدى الفارق الكبير في التسليح بيننا وبين مواقع العدو المواجهة لنا.

وكانت منطقة «الكاب» من المناطق التي تقع في دائرة دفاعاتنا، وكم من مرة حاول العدو العبور من هذه المنطقة وأغرقته مدفعيتنا القديمة في قاع القناة.

وذات ليلة وبعد أن كثفت طائرات العدو غاراتها الوحشية على المنطقة.. وركزت نيرانًا كثيفة على مواقعنا وحول كل ملجأ من ملاجئ الأفراد، حتى أصبح من الصعب أن يفكر الإنسان في الحياة تحت كثافة نيران العدو. وبرغم ذلك فحينما أراد العدو في تلك الليلة أن يعبر بقواته من المنطقة التي تحميها مدافعنا القديمة، دقت أجراس التلفون الميداني وتناولت الأيدي بثبات سماعات التلفون.. وجاء صوت جندي الاستطلاع يقول:

ـ العدو يعبر من منطقة «الكاب».

وقتها اختفت كل الهواجس، وفي لحظة كان هناك صوت قائد الكتيبة يأمر الرجال من خلف المدافع:

ـ اضربوا حتى آخر طلقة من أجل زملائكم على القناة.

اتجهت الفوهات على الفور صوب مواقع العدو وانطلقت منها القذائف متتالية عنيفة، واحتل الرجال الآخرون مواقعهم في لمح البصر في الخنادق وفي الحفر التي صنعتها قنابل الطائرات المعادية، يصبون من بنادقهم ومن رشاشاتهم وابلًا من الرصاص، وصوت القائد ما زال يهتف من التلفون الميداني:

ـ اضربوا حتى آخر طلقة.

كانت طائرات العدو تلقي على مواقعنا شحنات وحشية من القنابل، وتضربنا بالصواريخ المتتالية دون توقف.. أصيب عدد من

مدافعنا.. واستشهد عدد من رجالها، وأصاب اليأس عددًا آخر من أفراد المدافع الباقية، وهموا بالتراجع.. صاح قائدهم:

ـ من يتراجع سوف أضربه بالنار فورًا.

عادوا إلى مواقعهم واستبسلوا مع بقية زملائهم.. ولكن الطائرات المعادية لا تكف عن إلقاء حمولتها المميتة على رؤوسنا حتى بلغت القلوب الحناجر، والقائد ما زال يصيح:

ـ اضربوا.. اضربوا حتى آخر طلقة.

انتابتنا روح من الجنون.. لم يعد يهمنا شيء.. نسينا الدنيا كلها، ولم يصبح أمامنا سوى العدو الذي يريد قهرنا واختراق مواقعنا.. كان الجنود ينتهزون فرصة انطلاق طائرات العدو وهي تحوم لتعاود الضرب من جديد.. ليعاودوا حشو مدافعهم بالقذائف، ويطلقوها قبل أن تعود الطائرات.

لقد أصبحنا نحن والمعركة جسدًا واحدًا، ولم نتنبه إلى أن مدفعيتنا القديمة أغرقت زوارق العدو، وأن جحافله كانت قد فرت عن آخرها.. لم نتنبه لذلك إلا بعد أن توقفت الطائرات عن الظهور فوق رؤوسنا.. ولم ننم حتى الصباح.. كانت المدافع ما زالت مشرئبة الأعناق، وحضر القادة مع طلوع أول ضوء، التقوا بجنود مجموعة من مدفعيتنا. كانت عيونهم حمراء، وما زالوا يلهثون من التعب، ربت القائد على أكتافهم وقبلهم، ووضع على صدر كل منهم شارة البطولة، وكنا نحن حينما نركب أو نتجول في المنطقة ويسألنا أحد من أي سلاح أنتم، كنا نتحاشى الإجابة على هذا السؤال خوفًا من السخرية، ولكننا الآن نقول باعتزاز:

ـ مدفعية ٢٥ رطل.

فنحن الرجال الذين جعلناها تساوي وتواجه أعتى الأسلحة، وببسالتنا وإيماننا صارت هذه المدافع القديمة سلاحًا ماضيًا فعالًا.

وأصبحَ زملاؤنا على خط النار عندما يعرفون سلاحنا هذا يقولون:

ـ رجال حقيقيون.

كنا فخورين حقًّا.. وكان الجنود سعداء لدرجة غير عادية، وكان منظرهم مؤثرًا للغاية وهم ينظفون مدافعهم القديمة ويلمعونها، ويضبطون معداتها استعدادًا لقتال قادم لا بد منه.. وأخذوا يربتون على فوهاتها بحنان وحدب وكأنما قد أصبح لهذه المعدات الفولاذية قلب يحس ويعلم ويستجيب لصاحب الحق الذي يبحث عن حقه ولا يخذله.

وفجأة وبعد ستة عشر شهرًا من القتال المتواصل.. وكنا قد تعودنا الحياة تحت اللهيب المستعر وألفنا زئير المدافع ودوي القذائف، جاءنا الأمر بالتحرك والعودة إلى الخلف.

وفي الليل تحركت العربات تجر المدافع، وارتدينا نحن معاطفنا الصوفية اتقاء لبرد الليل القارس، كنا نشعر ببعض الحزن، ولكنه سرعان ما أصبح حزنًا مقبضًا ثقيلًا، عندما علمنا أن مدافعنا القديمة الحبيبة سوف تخرج من الخدمة بعد أن أمكن تسليحنا بسلاح جديد متقدم.. كانت لحظات اختلطت فيها مشاعرنا وقبلنا تلك المدافع قبل أن تغيب عن عيوننا كما يقبل الأخ أخاه.. وملأت الدموع عيون كثير منا، وهي تختفي في ظلمة الليل خلف العربات العسكرية.. ألم تحمِ كرامتنا؟ ألم تستجب لنجوانا؟ ألم تعطنا

خير ما لديها؟ يجب أن يكون الإنسان وفيًّا حتى للصخر ليكون جديرًا بالحياة.

وقبل أن نغادر الموقع، وقفنا لحظات من الحزن العميق والصمت على أرواح شهدائنا التي فاضت في هذا المكان، وتذكرنا جرحانا الراقدين الآن تحت السلاح.. وقلنا دون أن ننطق.. إننا دائمًا سنكون رجالًا كما كانوا هم تمامًا.



مختارات الكرمة

١. مليم الأكبر ـ عادل كامل

٢. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف ـ أحمد الشيخ

٣. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم

٤. دنقلا ـ إدريس علي

٥. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي

٦. الشبكة ـ شريف حتاتة

٧. ملك من شعاع ـ عادل كامل

٨. إجازة تفرغ ـ بدر الديب

٩. رابعة ثالث ـ علي الشوباشي

١٠. أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم

١١. شخصيات حية من الأغاني ـ محمد المنسي قنديل

١٢. حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب

١٣. الرحلة ـ فكري الخولي

«مذكرات بسيطة مضيئة بهذا الحب للوطن... أغنية حزينة قصيرة عن حرب عظيمة منسية، وأبطال أسطوريين، أصلهم من الفلاحين البسطاء»

علاء الديب

«تسجيل حي من معايشة الأحداث في الجبهة... توثيق تاريخي هام، يظل حيًّا أبدًا في ذاكرة شعبنا العظيم»

طاهر عبد الحكيم

«منذ أن وصلت إلى جبهة القتال في الخط الأمامي، تلح عليَّ ذاكرتي أن أسجل ما يحدث وما يجري في مواجهتنا للعدو الصهيوني. وأقول حقيقةً بأن الذي أكتبه وما يجري به قلمي ليس إلا النزر اليسير.
وإذا لم توافني منيتي أو يدركني الموت، فسوف أقص على شعبنا مأساة مقاومته للعدو، وبطولات جنوده وبسالتهم.. أما إذا كانت نهايتي ستكون على أرض القناة، فسأموت مستريحًا لأن أفكاري وجدت طريقها ولم تعجز عن الحركة.. وبذلك تكون هذه المذكرات هي حديث الرصاص الذي يجب أن تتكلم به قضية شعبنا».

ولد أحمد حجي عام ١٩٤١ بمحافظة الدقهلية، وتخرَّج في كلية الطب البيطري عام ١٩٦٧. بدأ نشاطه الاجتماعي في أواخر الخمسينيات، ففتح مدرسة لمحو أمية الفلاحين والعمال والنساء في قريته بالدلتا. جُند بالقوات المسلحة عام ١٩٦٨ في مكان آمن بالقاهرة، لكنه طلب بنفسه الذهاب إلى الجبهة حيث تولى الشؤون الطبية في الكتيبة التي خدم بها على جبهة القناة حتى استشهاده عام ١٩٧٢. له مقالات في الثقافة والفن ومحو الأمية، نُشر أغلبها في مجلة «الطليعة». وصدرت له عدة كتب، منها: «الكلمات والبارود»، و«الفلاحون والعمل السياسي»، و«محو الأمية عمل لا بد منه». منعت الرقابة صدور كتابه «مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس» عام ١٩٧٢.





